الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية

في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين

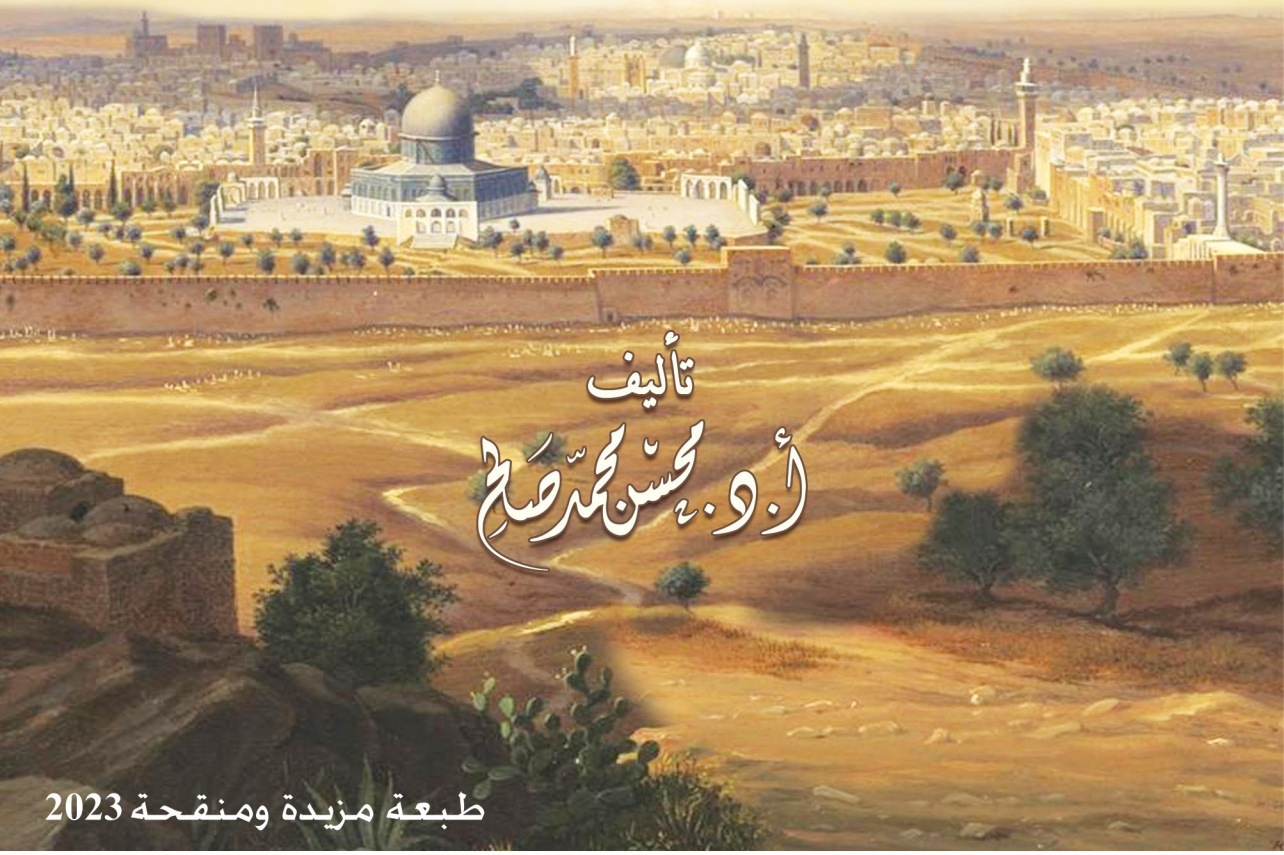

تأليف
أ.د. محسن محمد صالح

طبعة مزيدة ومنقحة 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الثالث

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net الموقع: www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

أولاً: سنن اللّه في النصر والهزيمة:

إن سنن الله سبحانه في نصر المسلمين ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بمدى التزامهم بأحكام دينهم وشريعة ربهم، وهذا ما أثبتته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وما أكدته تجارب التاريخ، وما أصاب حياة المسلمين من مدٍّ وجزر.

- فالنصر لا يأتي إلا من الله، قال تعالى ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾،[1] وقال سبحانه ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾.[2]

- والله ينصر الفئة المؤمنة الصادقة ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾،[3] وقال سبحانه ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.[4]

- والنصر يتحقق للمؤمنين متى أحسنوا الصلة بالله سبحانه، والتزموا كتابه، وسنّة نبيه، ونصروا دينه ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.[5]

- وعوامل النصر الحقيقية تتمثل في: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله والذكر، وطاعة الله، وطاعة الرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، وقد ذكرها الله سبحانه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾.[6]

ومن طاعة الله ورسوله الاستجابة لما أمرنا به من بذل للأسباب في العدة والإعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾،[7] وكذلك بيع النفس لله، والإنفاق والجهاد في سبيل الله.

- والمؤمنون العاملون هم سادة الأرض وحكامها، قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.[8]

• وعندما تقع الهزيمة للفئة المؤمنة، فلا بدّ أن تكون هناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور وإما في العمل، وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حينما يعودون لدينهم، وبعد أن يسدوا ما بهم من ثغرات.

فمثلاً كانت الثغرة في "أحد" في ترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي الطمع في الغنيمة، وفي "حنين" في بدايتها، كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها... .

• أما التخلي عن منهج الله سبحانه، فإنه يعني بالنسبة للمسلمين الضعف والذلة، والهزيمة، والضياع، قال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[9]

وفي الأثر: "ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا".

وهكذا فإن المد والجزر في تقدم المسلمين أو تأخرهم، في انتصارهم أو هزيمتهم، في حضارتهم، أو تخلّفهم، ترتبط ارتباطاً أساسياً بمدى التزامهم بشرع الله سبحانه، أو ابتعادهم عنه، ومن هذا المنطلق نتقدم لنفهم حقيقة حركة التاريخ في النصر أو الهزيمة عند المسلمين.

ودار الزمان:

قدمت أرض الإسلام في فلسطين على مرّ عصور الإسلام الزاهرة فيها أطيب الثمار وأينعها، ولكن هذا المد المعطاء من الحياة الإسلامية المشرقة لم يستمر... .

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم آخرونا
وآلمني وآلم كلّ حرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا

فمنذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ بعد منتصف القرن الثالث الهجري، ودولة الخلافة الإسلامية في ضعف مستمر متزايد نتيجة ضعف الارتباط بالله سبحانه، وعدم التطبيق الدقيق لشرعه سبحانه، وضعف الحكام وانشغالهم بوسائل اللهو والترف، وانتشار الأفكار الضالة والفرق المنحرفة في دولة الإسلام، ودخول علماء المسلمين في مرحلة من الجمود والتقليد أبعدتهم عن حلّ كثير من مشاكل وقضايا العصر المتجدد التي تواجه المسلمين، وكثرة الخلافات الفقهية، وتزايد التعصب المذهبي، وتمزق دولة الإسلام، وتكوين ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة، فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس،

وانشغال كثير من المسلمين بقشور الحضارة، ومباهجها، وجمع الأموال، والجواري والغلمان....

في هذه الحالة من الترهل والضعف، التي أصابت المسلمين في تلك الفترة، حدثت الحروب الصليبية.

ثانياً: الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية:

قبل بدء الحروب الصليبية بنحو أربعين عاماً، نجح السلاجقة الأتراك في بسط سيطرتهم على بغداد، وتولي الحكم تحت الخلافة الإسميّة للعباسيين. فقد استطاع السلاجقة بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس، وشمال العراق، وأرمينية، وآسيا الصغرى قرابة سنة 1040م، ثم سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد سنة 1055م، وتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى. وفي 1071/8/19م وقعت معركة ملاذكرد التي قادها السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وحلت فيها أكبر كارثة بالبيزنطيين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وفي 1071م سيطر السلاجقة على معظم فلسطين عدا أرسوف، وأخرجوا النفوذ الفاطمي منها، وتوسع السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام فاستطاعوا الاستيلاء على معظمها.[10]

وفي 485هـ/1092م توفي السلطان السلجوقي ملكشاه فتفككت سلطة السلاجقة، ودخلوا فيما بينهم في معارك طويلة طاحنة على السيطرة والنفوذ، وعلى حدٍّ تعبير ابن الأثير "انحلت الدولة ووقع السيف"،[11] وفي 1096م أصبحت سلطتهم تتكون من خمس ممالك: سلطنة فارس بزعامة بركياروق، ومملكة خراسان وما وراء النهر بزعامة سنجر، ومملكة حلب بزعامة رضوان، ومملكة دمشق بزعامة دقاق، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قلج أرسلان، وكانت معظم مناطق فلسطين تتبع الحكم في دمشق.

وفي ظلّ ضعف حاكمي الشام (رضوان ودقاق) ظهرت الكثير من البيوتات الحاكمة بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة.[12]

لقد بدأ الصليبيون حملتهم 491هـ/1098م ومناطق المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية، فقد دخل الأخوان رضوان ودقاق

ابنا تتش في حرب بينهما سنة 490هـ، ووقعت معارك عديدة بين محمد بن ملكشاه وأخيه بركياروق في الصراع على السلطنة، تداولا فيها الانتصارات والخطبة لهما بدار الخلافة (492–497هـ)، و"طالت الحرب بينهما، وعمّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين".[13] وفي تلك الفترة كان الصليبيون قد ثبتوا ملكهم في فلسطين وأرجاء عديدة من الشام، واستطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الشام، واتفق لهم "اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال".[14]

ثالثاً: الحملة الصليبية الأولى ونتائجها:

وفي تلك الأثناء أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة بعد أن دعا البابا أوربان الثاني Pope Urban II (1088–1099م) في مجمع كليرمونت Council of Clermont في 1095/11/26م "لاسترداد" الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ثم عقد عدة مجمعات دعا فيها للحروب الصليبية (ليموج Limoges، أنجرز Angers، مان Le Mans، تورز Tours، بواتييه Poitiers، بوردو Bordeaux، تولوز Toulouse، نيم Nîmes) خلال الفترة 1095–1096م، وقرر أن كل من يشترك في الحروب الصليبية تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات الصليبيين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وأن يخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي.[15]

وبدأت الحملات الصليبية بحملات العامة أو حملات الدعاة، وهي حملات تفتقر إلى القوة والنظام. وكان منها حملة بطرس الناسك، وهو رجل فصيح، مهلهل الثياب، حافي القدمين يركب حماراً أعرج، جمع حوله من فرنسا قرابة 15 ألفاً، وفي طريقهم أحدثوا مذبحة في مدينة مجرية لخلاف على المؤن فقُتل 4 آلاف، وانضمت إليهم عند القسطنطينية جموع والتر المفلس، ودخلت حشودهم الشاطئ الآسيوي، وحدثت معركة مع السلاجقة انتصر فيها السلاجقة وقتلوا من الصليبيين 22 ألفاً، ولم يبقَ من الصليبيين سوى 3 آلاف. أما حملتا فولكمار وأميخ فقد أقامتا مذابح لليهود في الطريق، وتشتت الحملتان في المجر!![16]

ثم كان ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى، وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوروبيون محترفون، وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف 1097م، وأسس الصليبيون إمارة الرُّها في آذار/ مارس 1098م بزعامة بلدوين البولوني. وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من شجاعة صاحب أنطاكية باغيسيان "وجودة رأيه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام"، غير أن أحد الأرمن المستحفظين على أسوار المدينة راسله الصليبيون، وبذلوا له "مالاً وإقطاعاً" ففتح للصليبيين الباب من البرج الذي يحرسه، فاحتل الصليبيون المدينة، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية 491هـ – 3 حزيران/ يونيو 1098م، بزعامة بوهيموند النورماني Bohemond.[17]

ونستطرد قليلاً مع أحد المواقف التي تستحق التسجيل، والتي تعكس مدى تشتت المسلمين، وتنازع أهوائهم، فبعد سقوط أنطاكية جمع المسلمون العساكر بقيادة كربوقا الذي وُلي الموصل، واجتمع معه عساكر الشام: تركها وعربها...، وسار المسلمون إلى أنطاكية فحاصروها وأقام الفرنج بأنطاكية 12 يوماً ليس لهم ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، وأصبح الرغيف بدينار، والبيضة بدينارين، وراسل الفرنج (الصليبيون) كربوقا يطلبون الأمان ليخرجوا من أنطاكية فرفض.... ومع بدء علائم النصر للمسلمين كانت قد بدأت علائم الخذلان وسط المسلمين؛ إذ إن كربوقا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين، وتكبر على الأمراء فأغضبهم وأضمروا له الغدر.

وقرر الفرنج الخروج للقتال، فخرجوا متفرقين من خمسة أو ستة أبواب، فأشار المسلمون على كربوقا أن يقفوا عند كل باب فيقتلوا من يخرج، ولكنه رفض وقال: "لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم"، فلما تكامل خروجهم ولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا: أولاً من الاستهانة بهم، والإعراض عنهم، وثانياً لأنه منعهم من قتال الفرنج، وتمت الهزيمة، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم!! فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة؛ إذ لم يجرِ قتال ينهزم بسببه، وثبت جماعة من المجاهدين قاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم!![18]

هذا الوضع يعكس باختصار جانباً كبيراً من الأحوال في ذلك الزمان، زعامة سيئة السيرة، مستفردة برأيها، وقادة جعلوا الخصومة مع أميرهم أكبر من عداء الفرنج، وأعداد كبيرة من المسلمين دون قيادة كفوءة، وأعداد أقل من الفرنج أكثر تدريباً وانتظاماً واحترافاً، ومسلمون مجاهدون صادقون لا يخلو منهم أي زمان يقاتلون احتساباً في سبيل الله... .

وفي الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام، استغل الفاطميون الفرصة، فاحتلوا صور 1097م، وسيطروا على بيت المقدس في شباط/ فبراير 1098م في أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية. واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين، وقد أرسل الفاطميون للصليبيين في أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم، وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي "سورية" للصليبيين وفلسطين للفاطميين...، وأرسل الصليبيون وفداً إلى مصر ليدللوا على "حسن نيَّاتهم"!!، وهكذا... ففي أثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقاً...!!

وظهرت الخيانات، وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و"كسب ودّ" الصليبيين في أثناء توسعهم؛ ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين، حيث تعهد بعدم اعتراضهم، وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن، بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق!!، وقدمت لهم حمص الهدايا!! وعقدت معهم مصياف اتفاقية!! أما طرابلس فدفعت لهم الجزية، وأعانتهم بالأدلاء، ودفعت بيروت المال، وعرضت عليهم الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس!![19]

تابع ريمون دي تولوز Raymond Toulouse (أمير إقليم بروفانس Provence وتولوز Toulouse بفرنسا) قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس، وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط!! وفي ربيع 1099م، دخلوا مناطق فلسطين، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، ثم قيسارية ثم أرسوف، ثم احتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي 1099/6/7م بدأوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نصَّبه

الفاطميون، ويدعى افتخار الدولة، وتمّ احتلالها في 23 شعبان 492هـ – 1099/7/15م. ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على 70 ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم.[20] أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكناً!!

تولى حكم بيت المقدس القائد الصليبي جودفري دو بوايون، وتَسمى تواضعاً بحامي بيت المقدس، واستسلمت نابلس، وتمّ للصليبيين احتلال الخليل.[21]

مسارات الحملة الصليبية الأولى

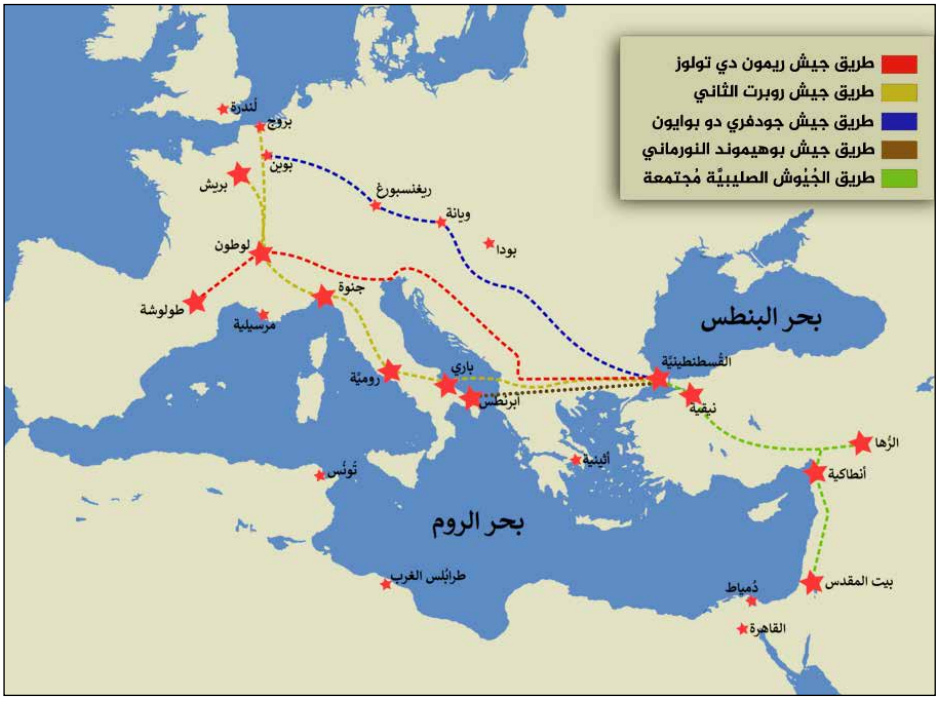

ويقال إنه لم يبقَ من الصليبيين إلا 300 فارس وألفين من المشاة، ولم يستطيعوا توسيع سيطرتهم، لأن كثيراً منهم عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا قسمهم بالاستيلاء على بيت المقدس،[22] وبذلك أصبحت ممالك الصليبيين كالجزر وسط محيط من الأعداء، ومع ذلك كُتب لها الاستمرار 200 عام حتى تمّ اقتلاع آخرها!! بسبب الإمدادات والحملات التي كانت تأتيهم بين فترة وأخرى، وبسبب ضعف المسلمين وتشرذمهم، وعدم استغلالهم لفرصة انسياب وانتشار الصليبيين على مساحات واسعة من الأرض بأعداد

قليلة ليقضوا عليهم، ولكن المسلمين تأخروا حتى قويت شوكة الصليبيين، وأصبح من الصعب اقتلاعها.

الممالك والإمارات الصليبية في بلاد الشام

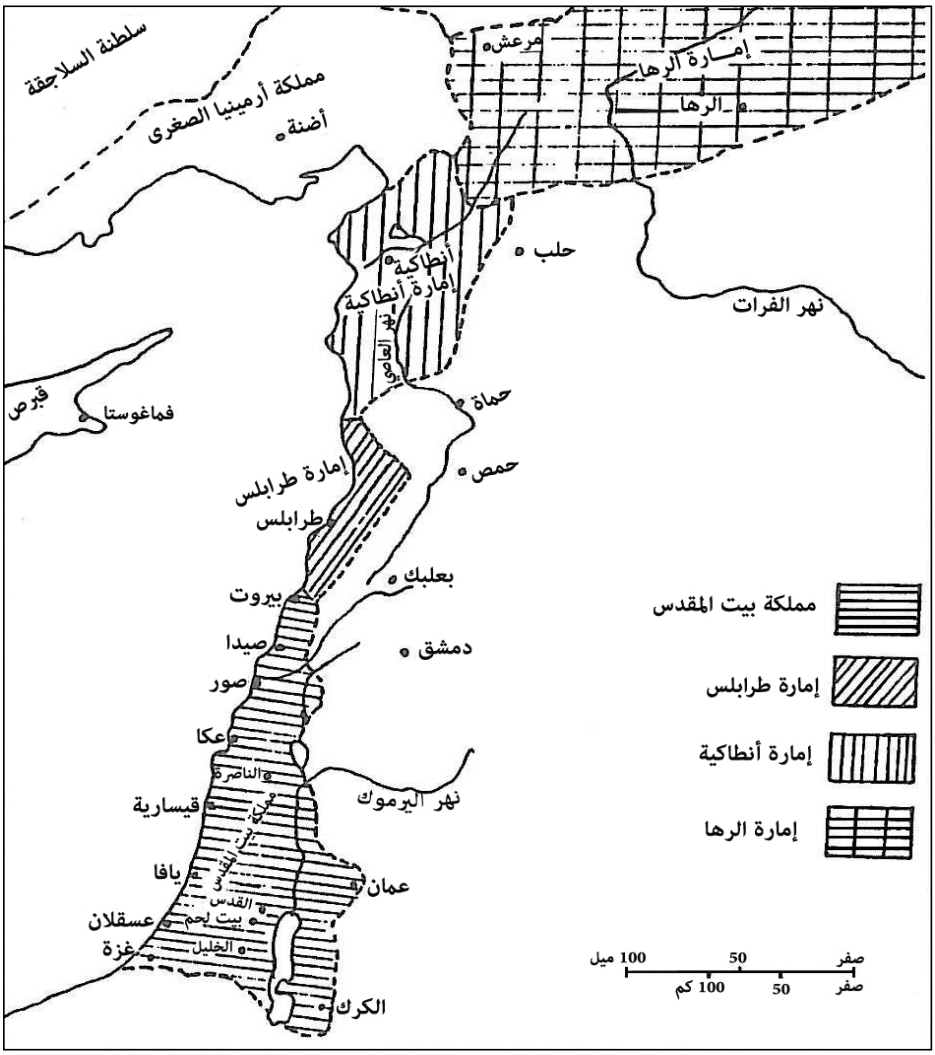

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى، فقد كانت يافا قد سقطت في أثناء حصار بيت المقدس على يد سفن جنوية في 1099/6/15م، وسيطر الصليبيون على شرق بحيرة طبرية "منطقة السواد" في أيار/ مايو 1100م، واستولوا على حيفا عنوة في شوال 494هـ – آب/ أغسطس 1101م بمساعدة أسطول كبير من البندقية، وملكوا

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

أرسوف في نيسان/ أبريل 1101م بالأمان وأخرجوا أهلها منها، ثم ملكوا قيسارية في 1101/5/17م بالسيف، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها.[23]

وهكذا فرض الصليبيون هيمنتهم على فلسطين، غير أن عسقلان ظلّت عصية عليهم، وكان المصريون (الفاطميون) يرسلون لها كل عام الذخائر والرجال والأموال، وكان الفرنج يقصدونها ويحاصرونها كل عام فلا يجدون لها سبيلاً، ولم تسقط عسقلان بأيدي الفرنج إلا في 548هـ/1153م، وكان أهلها قد ردوا الفرنج مقهورين في ذلك العام، وعندما آيس الفرنج وهموا بالرحيل أتاهم خبر أن خلافاً وقع بين أهلها فصبروا.

وكان سبب الخلاف أن أهلها لما عادوا قاهرين منصورين ادعت كل طائفة أن النصر كان من جهتها، فعظم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى!! فطمع الفرنج، وزحفوا إلى عسقلان وقاتلوا "فلم يجدوا من يمنعهم فملكوها"!! [24] ترى... كم هي الهزائم التي تأتي من أنفسنا أو نصنعها بأنفسنا؟! ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.[25]

وهكذا تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية، ونشير استطراداً إلى تأسيس الفرنج لمملكة صليبية رابعة هي طرابلس في 11 ذي الحجة 503هـ – 12 تموز/ يوليو 1109م بعد حصار دام سبعة أعوام.[26]

رابعاً: استمرار الصراع (نظرة عامة):

من الصعب أن ندخل في تفصيل الأحداث سنة بسنة حادثاً بحادث، خصوصاً أن منهجنا يميل إلى الاختصار، ووضع اليد على النقاط المهمة الحساسة في سياق حديثنا عن التجربة التاريخية للحل الإسلامي على أرض فلسطين، غير أن استكمال الصورة، ومعرفة مجمل الظروف في تلك الفترة يقتضي الإشارة إلى المعطيات التالية، التي ظهرت خلال الثلاثين عاماً التي تلت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس:

1. كان عدد الصليبيين محدوداً، وقد فرضوا هيمنتهم من خلال قلاع منتشرة كجزر معزولة في العديد من مناطق الشام.

2. استمر الصراع والنزاع بين المسلمين، واستعان بعضهم بالصليبيين على خصومهم، مما أضعف الموقف الإسلامي، وجعل الصليبيين يلعبون في بعض الأحيان دور الشرطي، ويستفيدون من ذلك في زيادة نفوذهم، وتقوية شوكتهم.

ومن ذلك الصراع بين طغتكين وبكتاش بن تتش على دمشق؛ حيث استعان بكتاش سنة 498هـ بالفرنج على خصمه، ولحق به "كل من يريد الفساد"، غير أن ملك الفرنج لم يعطِه سوى التحريض على الإفساد، ثم استقام الأمر لطغتكين.[27]

وعندما وقعت معركة بين الفاطميين والفرنج بين عسقلان ويافا 498هـ ساعدت الفاطميين قوة من دمشق من 300 فارس، وساعدت جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش بن تتش الفرنج.[28] وعندما جاء جيش السلطان من العراق 509هـ إلى الشام لجهاد الصليبيين بقيادة برسق ابن برسق خاف حكام دمشق وحلب على نفوذهم من أن يزول، فتعاونوا بقيادة طغتكين مع فرنج أنطاكية ضدّ جيش السلطان؛ ثم ما لبث طغتكين نفسه أن قاتل فرنج بيت المقدس، واستعاد رفنية بعد أن استولى الفرنج عليها.[29]... إنه القتال المرتبط بالمصلحة، فمرة يلبس ثوب الجهاد في سبيل الله، ومرة يلبس ثوب الدفاع عن "الحق" (الكرسي) تحت حجج الوراثة أو الكفاءة... حتى لو اقتضى ذلك التحالف مع الأعداء.

3. استمر جهاد المسلمين ضدّ الفرنج (الصليبيين) دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، وقد تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون، كما تعددت محاور الصراع والاشتباك مع الفرنج في بلاد الشام، وافتقر المسلمون إلى قاعدة كبيرة قوية تكون منطلقاً دائماً للجهاد، وكثيراً ما كان القتال بين مدينة أو قلعة إسلامية، تحاول الدفاع عن نفسها، أو توسيع نفوذها، وبين الفرنج.

وتداول المسلمون والصليبيون النصر والهزيمة في المعارك، ولم يكن يمضي عام دون معارك، وتبادلوا احتلال المدن والقلاع، ولم يكن من الصعب على المسلمين أن يدخلوا في وسط فلسطين، ويخوضوا المعارك عند الرملة أو يافا أو غيرهما. غير أن الصليبيين ظلّوا يحتفظون بنفوذهم وهيمنتهم في المناطق التي استولوا عليها.

وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين كانت قدراتهم محدودة، ولم يتمكنوا من توحيد قوى المسلمين لجهاد الفرنج، غير أنهم حافظوا على جذوة الجهاد، وألحقوا بالفرنج خسائر كبيرة، وأفقدوهم الاستقرار والأمان، وقتلوا أو أسروا العديد من قادتهم وزعمائهم.[30] فمثلاً كان بين معين الدولة سقمان وشمس الدولة

جكرمش حرب، ولما حوصرت حرّان من قبل الفرنج 497هـ تراسلا، وأعْلمَ كل منهما الآخر أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فسارا واجتمعا بالخابور في عشرة آلاف من التركمان والترك والعرب والأكراد، فالتقوا بالفرنج عند نهر البليخ، وهزم الفرنج فقتلهم المسلمون "كيف شاؤوا" وأُسر القائد الصليبي بردويل وفُدي بـ 35 ديناراً و160 أسيراً من المسلمين، وكان عدد قتلى الفرنج يقارب 12 ألفاً.[31] وفي 507هـ اجتمع المسلمون من الموصل وسنجار ودمشق، وقاتلوا الفرنج عند طبرية، وانتصروا عليهم، وأسروا ملكهم "بغدوين Baldwin I" دون أن يُعرَف أنه المَلك، فأُخذ سلاحه وأُطلق سراحه، وكثر القتل والأسر في الفرنج. ثم جاء مدد من جند أنطاكية وطرابلس فقويت نفوس الفرنج، وعادوا للحرب فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية، وصعد الفرنج إلى جبل غربي طبرية، ومكثوا 26 يوماً دون أن ينزلوا للقتال، فتركهم المسلمون، وساروا إلى بيسان، و"نهبوا بلاد الإفرنج" بين عكا إلى القدس وخربوها، ورجع المسلمون. وعاد مودود بن التونتكين صاحب الموصل مع طغتكين إلى دمشق، وهناك في صحن المسجد في يوم الجمعة، وثب عليه باطني فجرحه أربع جراحات وقُتل الباطني، وأبى مودود أن يموت إلا صائماً، وكان خيِّراً عادلاً كثير الخير، ويقال إن طغتكين هو الذي تآمر عليه. وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً جاء فيه: "إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها"!![32]

4. المسلمون الأصليون من سكان فلسطين استمروا في سكنهم للبلاد التي احتلها الفرنج، ولكن قسماً منهم هجروها إلى شرق الأردن ودمشق، وأنفوا من التعاون مع الصليبيين. ولذلك تعطلت الزراعة في أكثر المدن الساحلية الفلسطينية. وقد عمل هؤلاء على محاربة الصليبيين، وقدموا خدمات للمسلمين المهاجمين، وانضموا إلى كتائب المسلمين في بلاد الشام، وساعدوهم كأدلاء في فلسطين، يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري عنهم "إنهم علموا عدونا كيف يدمرنا؛ لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا".[33]

5. كان من أبرز قادة المسلمين المجاهدين الأوائل أقسنقر البرسقي الذي ولاه السلطان محمد سنة 508هـ الموصل وأعمالها، وأمره بقتال الفرنج، وخاض أقسنقر المعارك ضدّ الصليبيين في شمال الشام. ودخلت، بالإضافة إلى الموصل والجزيرة وسنجار، مدينة حلب سنة 518هـ تحت زعامته، فتوسعت جبهته المعادية للصليبيين، غير أنه قُتِل

رحمه الله سنة 520هـ على يد الباطنية في الموصل، وكان أقسنقر مملوكاً تركياً خيّراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل.[34]

6. أرسلت الدولة الفاطمية في مصر بقيادة وزيرها الأفضل بدر الجمالي حملات عديدة إلى فلسطين، وحاولت الدفاع عن مناطق نفوذها على الساحل، غير أن حملاتها لم تكن بمستوى ما تزخر به مصر من قدرات وإمكانات، ويظهر أن حملاتها اتخذت طابعاً استعراضياً، وافتقرت إلى التنسيق الجاد مع القوى الإسلامية في الشام.[35] وكان الحكم الفاطمي قد افتقد مصداقيته الجهادية الإسلامية عندما راسل الفرنج وهم يزحفون باتجاه بيت المقدس عارضاً التحالف ضدّ السلاجقة، وتقاسم النفوذ في الشام. ومهما يكن، فإن الدولة الفاطمية كانت في طور الأفول، وكانت تعاني من عوامل الضعف والانهيار.

خامساً: جهاد عماد الدين زنكي 521-541هـ:

انفتحت صفحة جديدة لجهاد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد تولى عماد الدين زنكي أمر ولاية الموصل وأعمالها سنة 521هـ بعد أن ظهرت كفاءته في حكم البصرة وواسط وتولّى شحنكية العراق،[36] وفي محرم 522هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك، ويحقق الانتصارات على الصليبيين، وعلَّق ابن الأثير بعد أن تحدث عن انتصار عماد الدين على الفرنج في معركة كبيرة، وملكه حصن الأثارب، وحصاره حارم 524هـ... "وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع".[37]

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فملَك زنكي حماة، وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقعلة أشب وغيرها من الأكراد الهكارية... .[38] وفي 534هـ حاول زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر

الحكم هناك معين الدين أُنر راسل الصليبيين للتحالف ضدّ زنكي، ووعدهم أن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن زنكي ذهب إليهم قبل قدومهم لدمشق، فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا. ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج، ثم استولى عليها، وسلمها للفرنج!![39]

غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها، وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها أربعة أسابيع، وفتحها عنوة في 6 جمادى الثانية 539هـ، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة.[40]

قُتل عماد الدين زنكي، بعد أن حمل راية الجهاد أكثر من عشرين عاماً، في 5 ربيع الأول 541هـ – منتصف أيلول/ سبتمبر 1146م، غدراً على يد جماعة من مماليكه، بينما كان يحاصر قلعة جعبر،[41] وكان عمره زاد عن ستين عاماً، وعلى ما ذكر ابن الأثير فقد كان زنكي، شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يعين القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكاناً.[42] "وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة".[43] واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد".

لقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة من النزاع بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في أحيان أخرى، وفي أجواء الحكم الوراثي، ونزعة الكثيرين للسيطرة والزعامة حتى ولو على مدينة أو قلعة واحدة، كما عاش في فترة كانت القوى الصليبية فيها ما تزال تملك الكثير من القوة والحيوية. ومع ذلك فقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسَّر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض، وقدَّم نموذجاً للحاكم والمجاهد تحت راية الإسلام، وقوّى الأمل باسترجاع المقدسات. غير أن أفضل أثر تركه، على ما يظهر لنا، هو ابنه نور الدين محمود.

سادساً: جهاد نور الدين محمود 541-569هـ:

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنيه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها، وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود بعد نحو عشرين عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين في 17 شوال 511هـ – شباط/ فبراير 1118م، وكان أسمر، طويل القامة، حسن الصورة، ذا لحية خفيفة، وعليه هيبة ووقار. تزوج سنة 541هـ من ابنة معين الدين أُنر ورزق ببنت وولدين، وتوفي رحمه الله في 11 شوال 569هـ – 15 أيار/ مايو 1174م.[44]

وبحكم نور الدين انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال 28 عاماً، من حكم نور الدين كان واضحاً في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب، ويعدّ العدة والعتاد، ويوحد جهود المسلمين، ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة، وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين، وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم... .

ودخل المعركة وفق فهم إسلامي شامل سليم يؤكد على عقائدية المعركة مع الصليبيين، فهي:

- صراع بين حقٍّ وباطل، وبين إسلام وكفر.
- تعني كل المسلمين دون نظر إلى قوميات وعصبيات وجنسيات.
- ولا سلام نهائي حتى يسترجع المسلمون كل شبر من أراضيهم.
- ولا بدّ من الإعداد المتكامل للأمة، حتى تكون على مستوى الجهاد، إيمانياً وثقافياً وتربوياً واجتماعياً وجهادياً وعسكرياً.
- ولا بدّ من توحيد الجهود تحت راية الإسلام في مواجهة العدو الصليبي.

معالم النهضة الإسلامية:

وفي سبيل ذلك قام نور الدين محمود بإحياء نهضة إسلامية أكدت على تكامل الحل الإسلامي، وقد تمّ التعبير عنها من خلال:

1. القيادة الإسلامية الصادقة:

تمثَّلت هذه القيادة في شخصه وأشخاص من حوله من القادة والمسؤولين والعلماء. فقد كان للتكوين النفسي والشخصية المميزة لنور الدين محمود أثرهما الكبير في وجود قيادة إسلامية واعية، جادة، ومجاهدة.

قال ابن الأثير: "طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين".[45] فلقد كان ذكياً، ألمعياً، فطناً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول للعمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد.[46]

كما عُرف نور الدين بتقواه وورعه، فقد كان حريصاً على أداء السنن وقيام الليل بالأسحار. إذ كان ينام بعد صلاة العشاء، ثم يستيقظ في منتصف الليل، فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر، كما كان كثير الصيام.[47]

وتميز بفقهه وعلمه الواسع، فلقد تشبَّه بالعلماء، واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالماً بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث، وألّف كتاباً عن الجهاد.[48]

وكان ذا طبيعة جادة، كما رزقه الله قوة الشخصية فكان "مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته"، ومجلسه "لا يُذكر فيه إلا العلم والدِّين والمشورة في الجهاد"، "ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى صموتاً وقوراً".[49]

وكان زاهداً متواضعاً، فقد كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز، ولا استئثارٍ بالدنيا، وعندما شكت زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص، وقال: "ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك".[50]

قال له الشيخ الفقيه قطب الدين النيسابوري يوماً: "بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف"، فقال له نور الدين: "يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو".[51]

وعلى اتساع نفوذه وسلطانه جاءه التشريف من الخلافة العباسية، وتضمن قائمة بألقابه التي يذكر بها على منابر بغداد تقول: "اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضِيَ الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين"!! فأوقف هذا كله، واكتفى بدعاء واحد هو "اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي".[52]

وعُرِفَ باتساع شعبيته، وحبّ الناس له حتى في البلاد التي لا يحكمها، وكان يستشعر إحساساً عظيماً بالمسؤولية تجاه الزمن أن يضيع، واتجاه الدم المسلم أن يراق، والكرامة الإسلامية أن تهدر، والأرض الإسلامية أن تستباح؛ فكان يَصِل في عمله الليل بالنهار، وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته.[53]

وحباه الله تكويناً عسكرياً فذاً حمل من خلاله تكاليف الجهاد الشاقة 28 عاماً بنفسية جهادية صادقة.[54]

2. التزام أحكام الإسلام وتطبيقها:

حرص نور الدين على تطبيق أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها، وكما حرص على ردّ الحقوق إلى أصحاب المظالم، وكان يقول: "حرام على كل من صحبني أن لا يرفع قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ". وفي توحيده لبلاد المسلمين كان يحرص على عدم إراقة دماء المسلمين، ولذلك كان ذا صبر وحكمة وتأنٍّ في ذلك، لقد كان رحمه الله يحفظ الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها.[55]

وعلى الرغم من اضطراره للاصطدام بالعديد من زعماء المدن والقلاع المسلمين في سعيه لتحقيق الوحدة، أو لتحالفهم مع الفرنج...، إلا أن دم المسلم كان عنده عظيماً وكان: "لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا لضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم".[56] وعندما تحالف حكام دمشق مع الصليبيين 544هـ جاهد الصليبيين دون إيذاء المسلمين وضياعهم، وقال: "لا حاجة لقتل المسلمين بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين". لقد شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه، ودعوا الله أن يكون ملكهم.[57]

وعندما رفع عليه أحدهم قضية إلى القاضي، استدعاه القاضي فقال: "السمع والطاعة، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع". وفي مرة أخرى دعي للقضاء، فاستجاب، ولما ثبت أن الحق مع نور الدين وهب لخصمه ما ادعاه عليه.[58]

لقد ألغى رحمه الله الضرائب التي تزيد عن الحدِّ الشرعي على الرغم مما كانت تدر من دخل كبير على ميزانية الدولة، وعلى الرغم من إمكانية تبرير وجودها، عند البعض، بظروف البلاد والحرب،[59] وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لصٍّ وقاطع طريق... أفلا نحفظ الدِّين ونمنع ما يناقضه؟".[60] وكان أشهى شيء عنده كلمة حقٍّ يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها.[61]

3. البناء الإيماني والتربوي والثقافي:

في هذا المجال استقدم نور الدين العلماء العاملين، وأفسح لهم مجال العمل والدعوة، وسعى في بناء المدارس والمساجد، وأوقف عليها الأوقاف، وحارب البدع والأضاليل... فانتشر نور الإيمان والعلم بين الرعية، وأحيا سمت احترام العلماء وتوقيرهم. وعلى الرغم من أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجرؤون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه... إلا أنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه، وأقبل عليه مظهراً كل احترام وتوقير.[62] وكان يقول عن العلماء إنهم "هم جند الله وبدعائهم نُنصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حقّ أضعاف ما أعطيهم، فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا".[63] لقد كانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية،[64] وكان يسمع نصيحة العلماء ويُجلها، ويقول: "إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له، ويرقُّ قلبي".[65]

4. الإعمار والبناء الحضاري والاجتماعي:

عُرف نور الدين بشخصيته التي تهتم بأحوال المسلمين وتحيي معاني التكافل والتعاون والتضامن بينهم، ورفع عنهم معاناتهم وأحوالهم الصعبة... فلقد عمل على كفالة الأيتام، وتزويج الأرامل، وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة، وتوطين البدو وإقطاعهم الأراضي حتى لا يؤذوا الحجاج. لقد ارتقى بالخدمات التي تُقدّم للمسلمين فأحبه الشعب، وأصبحت

صلته به متينة قوية...، وسَرَت هذه النفسية البناءة المحبة للخير إلى نفوس رجاله، فأصبحوا يتسابقون في خدمة الناس، وبناء المدارس والمستشفيات والملاجئ، ووسائل الخدمات المختلفة.[66]

5. البناء الاقتصادي:

رتَّب نور الدين ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجَّع التجارة بتأمين طرق المواصلات ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوي الدولة ويدعم بنيانها الاقتصادي.[67]

6. البناء الجهادي العسكري:

لقد سعى نور الدين في إحياء المعاني الجهادية في النفوس، وتربية الأمة على معانيها وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد، واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن، وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين، وتميز بحزمه وقوته في ذلك، وكان رده عنيفاً جداً على الأعداء إذا انتُهِكَت حرمات المسلمين. ومن ذلك أنه لم يكد يمرّ على استلامه للحكم شهر واحد حتى هاجم الصليبيون الرُّها ظانين أن الحاكم الجديد ضعيف، ولكن نور الدين هاجم الصليبيين، وقتل ثلاثة أرباع جيشهم، الذي هربت فلوله، وقد عرفت من يكون هذا القائد الجديد، وحصل مرة أن هاجم الصليبيون نور الدين وجزءاً من جيشه على حين غفلة، فأقسم نور الدين أن لا يستظل بسقف حتى ينتقم للإسلام، وكان انتقامه رهيباً في معركة حارم؛ إذ قتل منهم الآلاف.[68]

حتى الرياضة استفاد منها في مجال الإعداد الجهادي، فلقد كانت الحرب تجري في ذلك العصر على الخيول... ولبناء هذه المهارة في التحكم بالخيول وحركتها، كان يلعب بمهارة كبيرة لعبة الكرة من فوق الخيول (البولو)!![69]

لقد حرص على تعبئة طاقات الأمة للجهاد... وهو في بذله لأسبابه لم ينسَ دعاء الضعفاء والعجائز والمحتاجين، فكان يحسن إليهم، ويذكر أنه ربما ينتصر ببركة دعائهم.

بهذا البناء المتكامل والإعداد الجاد المتزن دخل نور الدين مرحلة التغيير الجذري على الساحة السياسية ليحقق أمرين سار بهما في اتجاهين متوازيين هما:

- تحقيق الوحدة الإسلامية وتعبئة قواها في بوتقة واحدة.
- تحطيم القوى الصليبية تدريجياً: بإضعاف هيبتها، وإنهاك قواها، والتحرير التدريجي لأرض المسلمين الواقعة تحت سيطرتها... وذلك بانتظار استكمال الوحدة الإسلامية لتحقيق نصر حاسم ونهائي.

جهود الوحدة الإسلامية:

لقد حرص نور الدين على تحقيقها بقدر كبير من الصبر والحكمة والأناة، وحرص شديد على عدم إراقة دماء المسلمين، وقد حرص على استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال، وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام، الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية أمام رعيتهم. وكان الناس يقارنون بين جهاده، وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!! فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ضمّ نور الدين حمص إليه سنة 544هـ/1149م، غير أنه كان يتوق لضمّ دمشق التي كانت تقف بينه وبين الصليبيين في فلسطين. وكان الحكم في دمشق يسعى بالدرجة الأولى للحفاظ على نفسه، فمرة يجاهد الفرنج، ومرة يصانعهم ويهادنهم، ومرة يتحالف معهم إذا خاف من قوة إسلامية ما. ووفق تخطيط متأنٍّ يهدف إلى: السيطرة على دمشق دون إراقة دماء، وكسب أهل دمشق إلى صفه، ومنع نظام الحكم من الاستعانة بالفرنج عليه إذا قصدهم، استطاع نور الدين أن يفتح دمشق في صفر 549هـ – 25 نيسان/أبريل 1154م، وقد جاء هذا الفتح بعد أن توفي معين الدين أُنر سنة 1149م، وبعد أن ضعف الحكم بدمشق، ووقع تحت النفوذ الصليبي الذي فرض الإتاوات على دمشق، وكانت رسلهم تدخل البلد كل عام ويأخذونها منهم.[70]

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمها له، غير أنه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين واقتلاع الحكم الصليبي منها لا يكون إلا بالسيطرة على مصر، ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكي الكماشة.

وقد جاءت الفرصة لنور الدين بالسيطرة على مصر عندما استعان أحد المتنافسين على الوزارة واسمه شاور بنور الدين على غريمه ضرغام سنة 559هـ، وعرض على نور الدين ثلث البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون قائده الذي يرسله مقيماً بمصر، ويتصرف بأمر نور الدين. أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه الذي هزم ضرغام وقتله، ولكن شاور غدر بشيركوه واستعان بالفرنج لإخراجه، فجاؤوا وحاصروا شيركوه ورفاقه في بلبيس ثلاثة أشهر حتى جاءتهم أخبار انتصارات نور الدين وملكه (حارم) فعرضوا الصلح والعودة إلى الشام، فوافق ولم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالشام.[71]

واشتد التنافس بين نور الدين وبين الصليبيين على مصر، وخصوصاً أن الدولة الفاطمية كانت في ضعف شديد وفي طور الاحتضار. فأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر في ألفي فارس في حملة ثانية في ربيع الثاني 562هـ، واستطاع هزيمة الفرنج وجيش مصر بالصعيد، وملَكَ الإسكندرية بمساعدة أهلها وذهب للصعيد فملكه، غير أنه اضطر للعودة إلى دمشق في ذي القعدة بعد أن اشترط على الفرنج ألا يأخذوا ولو قرية واحدة من مصر فوافقوا.[72]

وتمت السيطرة لنور الدين على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضاً أسد الدين شيركوه في ربيع الأول 564هـ، ففي ذلك الوقت كان الفرنج بسبب تحالف شاور معهم قد تمكنوا من البلاد المصرية، وأصبح لهم نفوذ كبير، وتسلموا أبواب القاهرة وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم و"حكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم". وطمع الفرنج بملك مصر فجاءت حملة بقيادة ملك بيت المقدس واحتلت بلبيس عنوة، فقتلت وأسرت ثم حاصرت القاهرة، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيثه وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال هذه شعور (جمع شَعْر) نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فأرسل نور الدين حملته الثالثة، فلما قارب أسد الدين مصر خرج الفرنج خائبين، وانتهت الحملة بسيطرة أسد الدين على مصر، وقتل الوزير شاور، وتولى أسد الدين الوزارة مكانه في 17 ربيع الثاني 564هـ – كانون الثاني/ يناير 1169م، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في 22 من جمادى الثانية فولى صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه.[73]

وبأمر من نور الدين أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم 567هـ – 10 أيلول/ سبتمبر 1171م "فلم

يتنطح في ذلك عنزان"، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في 10 محرم من دون أن يعلم بذلك.[74] وهكذا ضُمت مصر رسمياً للخلافة العباسية، وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور الدين.

وفي 566هـ/1170م ضمّ نور الدين الموصل، والمناطق التي تتبعها إلى حكمه،[75] كما ضمّ اليمن سنة 569هـ/1173م عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب؛ حيث تمت له السيطرة عليها.[76] وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام فمصر واليمن، مما أنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

تحطيم القوى الصليبية:

خلال فترة حكمه التي امتدت من 1146–1174م لم تتوقف المعارك وحروب الجهاد بين نور الدين والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه، ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية، ويضعف قوتها يوماً بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير نحو خمسين مدينة وقلعة، مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرُّها، وصفَّى الأملاك التي كانت تتبعها (تل باشر، وسميساط، وقلعة الروم، ودلوك، والراوندان، وقورس، ومرعش، وإعزاز، وعينتاب، والبيرة...) وذلك خلال الفترة الممتدة بين 1146–1151م. كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي (1147–1149م)؛ وقَتل في إحدى معاركها (أنب 1149/7/29م) أمير أنطاكية ريموند دو بواتييه، وزعيمَ الباطنية المتعامل معهم ضدّ المسلمين علي بن وفا. وقام بدور أساسي في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (1147–1148م) التي شارك فيها ملك فرنسا لويس السابع Louis VII، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث Conrad III، والتي تعدّ نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث كُسرت هيبة الصليبيين، ورفعت الروح المعنوية لدى المسلمين.[77]

واستمرت الحروب سجالاً، ووقعت العديد من المعارك المهمة، أدت إلى إضعاف النفوذ الصليبي وضمّ مناطق جديدة لنور الدين على حساب الصليبيين... حتى أحكم نور الدين إحاطة مملكة بيت المقدس الصليبية. ولا يتسع المجال لذكر المعارك والوقائع كلها، ولكنا

نكتفي بالإشارة إلى إحداها، وهي التي وقعت عند تلّ حارم في رمضان 559هـ – 11 آب/ أغسطس 1164م.

ففي 558هـ، كان نور الدين قد انهزم من الفرنج تحت حصن الأكراد، وهي المعركة التي عرفت بـ"البقيعة"؛ حيث كبسهم الفرنج فجأة، وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، ونزل قرب حمص، وهناك أقسم "والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام"، ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيل والسلاح، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه، وعاد العسكر "كأن لم تصبهم هزيمة".[78]

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه للجهاد، وإنفاقه عليه قال له بعضهم: "إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح"، فغضب من ذلك، وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟!".[79]

وعرض الفرنج الصلح، لكن نور الدين رفض. واجتمع جيشا المسلمين والفرنج بعد أن حشدا حشوداً ضخمة عند حارم. وقبيل القتال انفرد نور الدين بنفسه تحت تلّ حارم وسجد لله، ومرَّغ وجهه، وتضرع "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك"... "إيش فضول محمود في الوسط"!!... وقال: "اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً. من محمود الكلب حتى يُنصر"!!، يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه.[80] ولهذا الدعاء قصة مع بشرى النصر نذكرها كما رواها أبو شامة في كتاب الروضتين، إذ قال:

> بلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال يا رسول الله ربما لا يصدقني فاذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر!! قال: فانتهيت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس ولا يزال يتركّع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا

أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلها؛ وألحَّ عليَّ في ذلك، فقلتها؛ فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا. وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وفي 1164/8/11م التحم الفريقان، وانكشفت المعركة الكبرى عن كارثة هائلة حلت بالصليبيين؛ إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان من بين الأسرى أمير أنطاكية وأمير طرابلس وحاكم قيليقية البيزنطي، وأسر جميع الأمراء عدا أمير الأرمن، وفي اليوم التالي استولى نور الدين على حارم...، وكان ذلك فتحاً كبيراً.[81]

وفي 569هـ/1173م كان نور الدين قد أعد عدته للهجوم النهائي على بيت المقدس، وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي، حتى إنه قد جهز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله، وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين الذي تلكأ بسبب الظروف الخاصة التي تواجهه في مصر، والتي يرى أنها تحتاج إلى صبر وأناة وإعداد. ولم يرضَ نور الدين بذلك التأخر، فقرر الذهاب إلى مصر، وترتيب أمورها بنفسه إلا أن المنيّة عاجلته، فتوفي رحمه الله في 11 شوال 570هـ – 1174/5/15م.[82]

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ، تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي.

سابعاً: جهاد صلاح الدين الأيوبي 569-589هـ:

رفع الراية، بعد نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، وقد سار على خطى سلفه نور الدين، فقد ترسم المنهج الإسلامي والحل الإسلامي في تحطيم القوى الصليبية وتحرير الأرض المقدسة.

جاء صلاح الدين ووجد نور الدين قد هيأ الظروف المناسبة لاسترداد الأرض المقدسة، فاستغلها أحسن استغلال وقطف ثمارها اليانعة بعد سنوات من حكمه.

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 532هـ/1137م بقلعة تكريت، وكان أبوه والياً عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وتولى الوزارة في مصر وعمره 32 عاماً.

يُوصف صلاح الدين بأنه كان حسن العقيدة، كثير الذكر، شديد المواظبة على صلاة الجماعة، ويواظب على السنة والنوافل، ويقوم الليل. وكان يحب سماع القرآن وينتقي إمامه، وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن دمعت عيناه، شديد الرغبة في سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الله، وكان حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، وعظيم الإنابة إليه.

وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفاً، رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان كريماً، وحسن العشرة، لطيف الأخلاق، طاهر المجلس؛ لا يذكر أحد بين يديه إلا بخير، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم، فما كتب إيذاء لمسلم قط.

وكان شجاعاً شديد البأس والمواظبة على الجهاد عالي الهمة، قال يوماً وهو قرب عكا "في نفسي أنه متى ما يسَّر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت".

ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفذت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا 47 درهماً ناصرية، ودیناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة... عزم على الحج في السنة التي توفي فيها، ولكنه تعوق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت.[83]

صراع على خلافة نور الدين:

لما مات نور الدين بويع لابنه من بعده بالملك، وهو الصالح إسماعيل، وكان صغيراً في الـ 11 من عمره، وجُعل أتابكه شمس الدين بن المقدم... "فاختلف الأمراء وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور.... وانتشرت الفواحش... وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين"،[84] وعندما هاجم الفرنج المسلمين واجههم ابن المقدم عند بانياس لكنه ضعف عن مقاومتهم، فبذل لهم أموالاً جزيلة وهادنهم، كما خرجت أرض الجزيرة من ملك الصالح إسماعيل، واستبعد الأمراء المتحكمون في الصالح بني الداية وسجنوهم، وهم من أقرب الأمراء المقربين إلى نور الدين (شمس الدين بن الداية ومجد الدين بن الداية رضيع نور الدين...)، وكان كل ما سبق سبباً في غضب صلاح الدين على الأمراء المتحكمين في الملك الصالح، بل وعدَّ نفسه أحق الناس بالإشراف على تربية وخدمة الملك الصالح.[85]

وهكذا فتحت أنظمة الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات "الدستورية" الشورية، والتنازع على السلطة وحبّ الرئاسة...، المجال أمام مرحلة جديدة من الصراع والخلاف بين المسلمين أخَّرت المعركة الفاصلة التي كان يُعد لها نور الدين، واضطرت صلاح الدين أن يخوض معركة الوحدة من جديد، ولم يتم له ذلك إلا بعد أكثر من 12 عاماً.

ففي ربيع الأول 570هـ – تشرين الثاني/نوفمبر 1174م ضمّ صلاح الدين دمشق سلماً، ثم ضمّ حمص دون قلعتها في 1174/12/10م، ثم ملك حماة وقلعتها في 1174/12/28م، ثم عاد فسيطر على قلعة حمص، ثم استولى على بعلبك في رمضان من السنة نفسها، فصار أكثر الشام بيده، وكان صلاح الدين طوال ذلك الوقت محافظاً على ولائه الظاهر للصالح بن نور الدين، والدعوة له في المساجد وصكّ العملة باسمه، ولكن بعد أن وقعت معركة بين صلاح الدين من جهة وبين جند حلب والموصل الزنكيين من جهة أخرى وانتصر فيها صلاح الدين، قطع حينئذ صلاح الدين الخطبة وصكّ العملة للملك الصالح، وتسمَّى هو بملك مصر والشام، وأقره الخليفة على ذلك، ثم استولى صلاح الدين في شوال من السنة نفسها (570هـ) على قلعة بعرين.[86]

وفي سنة 570هـ أيضاً استولى صلاح الدين على بزاعة ومنبج وإعزاز،[87] وفي 577هـ توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب، ولم يكمل العشرين عاماً،[88] وفي 578هـ عبر صلاح الدين الفرات وملك منطقة الجزيرة (الرُّها – حران – الرقة...) وملك سنجار،[89] وفي 579هـ ملك صلاح الدين آمد، وتلّ خالد وعينتاب،[90] وملك حلب في صفر من السنة نفسها؛ حيث نزل عنها عماد الدين بن مودود بن زنكي مقابل سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وبملك صلاح الدين حلب، بعد حصارها مرات عديدة، "استقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها..."،[91] كما فتح صلاح الدين قلعة حارم.[92] وفي 581هـ ملك صلاح الدين ميافارقين، واستلم شهرزور وولاية القرابلي وجميع ما وراء نهر الزاب.[93] وأخيراً دخلت الموصل وما يتبعها في حكم صلاح الدين في 582هـ/1186م.[94]

استمرار الجهاد:

لم تخلُ هذه المرحلة 569–582هـ/1174–1186م من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين،[95] والتعرف على إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوِّي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

ونمرّ هنا على أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة، ففي 570هـ هزم المسلمون الأسطول الصليبي القادم من صقلية، الذي هاجم الإسكندرية بـ 50 ألف رجل، هزيمة كبيرة.[96] وفي 573هـ هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر حتى وصل عسقلان وفتحها وأسر وقتل وأحرق، ثم انساح جند صلاح الدين لما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر، وسار صلاح الدين للرملة، وهناك فاجأهم الفرنج وهزموهم ورجع صلاح الدين في نفر يسير ومشقّة شديدة،[97] وكان درساً قاسياً له. وفي السنة نفسها، حاصر الفرنج حماة وحارم وفشلوا، وهزم الفرنج في السنة التالية عند حماة.[98] وفي 575هـ أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج، وخرب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة شديدة انتصر فيها المسلمون، ونجا ملك الفرنج، وأسر عدد من قادتهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً عند الملك، وأسر أخوه صاحب جبيل، كما أسر صاحب طبرية، ومقدم الداوية، وصاحب جنين.[99]

وفي 578هـ قام صلاح الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركِّزاً على الشوبك والكرك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبرية على يد فرخشاه (والي دمشق)، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا.[100] وفي السنة نفسها هزم صلاح الدين الأسطول الذي سيّره أرناط (رينالد دو شاتيون) حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة...، وأرسل بعض الأسرى الفرنج إلى مِنى "ليُنحروا" عقوبة لمن رامَ إخافة حرم الله.[101]

وفي 579هـ عبر صلاح الدين نهر الأردن في 19 جمادى الثانية، فهاجم بيسان، "وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه". كما غزا صلاح الدين الكرك، وعاد فحاصرها في السنة التالية دون جدوى، ثم هاجم نابلس 580هـ، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فاقتحمها، وعاد إلى دمشق، وهو يبث السرايا عن يمينه وشماله يغنمون ويخربون أملاك الفرنج.[102]

وفي 582هـ مات ملك الفرنج في بيت المقدس، وتولى مكانه طفل صغير، وحدث خلاف وطمع في السلطة بين الفرنج جعل صاحب طرابلس يراسل صلاح الدين، ويتحالف معه ضدّ أقرانه من الفرنج. وفي السنة نفسها غدر صاحب الكرك أرناط بقافلة عظيمة

للمسلمين فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به.[103]

وهكذا دخلت سنة 583هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين، وخبرة أوسع في فنّ التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين. وقبل الإشارة إلى معركة حطين نقف قليلاً عند استراتيجية العمل لدى صلاح الدين.

استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين:

1. الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

تمثل ذلك في إعادة الوحدة وتقويتها، وبناء الإنسان المسلم المقاتل، وبناء الاقتصاد الحربي.

2. بناء المجتمع للحرب:

وفي هذا حرص على إشاعة العدل وإزالة الأحقاد بين إمارات المسلمين، وتوجيه العداء ضدّ الصليبيين. كما أقام الصناعات الحربية بما في ذلك دورٌ لصناعة السفن، وقام بتنظيم الحصون وحمايتها، وتجهيزات أدوات الحصار... وغيرها.

3. وضوح الهدف:

الذي تمثل بقيادة الأمة الإسلامية لطرد الصليبيين، وهذا الوضوح ساعد على كفاءة الأداء والإعداد، فكان "يبذل أقل جهد لأفضل نتيجة"، كما ساعد على تحديد أهداف العمليات العسكرية، فكانت الأولوية للتحرير، وحُدِّدت السياسات على هذا الأساس.

4. الحرص على المسلمين:

فهو "يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، ويحرص على الحرب للمحافظة على المسلمين"، وقد اعتاد على ردّ العدوان بأقوى منه حفاظاً على الروح المعنوية، وتبني الاستعداد القتالي المستمر، وحدد لكل عملية أساليبها المناسبة.[104]

بالإضافة إلى هذه الاستراتيجيات الأساسية فقد تبنى صلاح الدين في معاركه استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل القيام بمسيرات طويلة وهجمات مباغتة، والهجوم على جهة لتخفيف الضغط عن جهة أخرى. واستراتيجية الحرب التشتيتية كتشتيت الجيش المعادي داخل المعركة (فصل الفرسان عن المشاة مثلاً) واستغلال النزاعات

السياسية، وضرب فريق بآخر وتحييد الأعداء. واستراتيجية الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية قبل هجومه أو استكمال استعداده.[105]

وحقَّق صلاح الدين في حروبه المبادئ الأساسية للحرب بكفاءة كبيرة مثل:

- مبدأ المباغتة.
- مبدأ أمن العمل: بما تمثل له من شبكة أمنية جاسوسية قوية ودقيقة.
- مبدأ القدرة الحركية: بما تعنيه من سرعة تحرك الجيش وتجمعه وانتقاله.
- مبدأ المبادءة والقوة الهجومية: الذي تمثل بتحويل الروح الدفاعية إلى هجومية.
- مبدأ الاقتصاد القوي: فكل معركة ما يناسبها.
- مبدأ المحافظة على الهدف: فكان يهتم بتدمير القوى البشرية للصليبيين بالدرجة الأولى، وحرمانهم من مواردهم الاقتصادية وتحويلهم إلى عبء على الغرب، وتحرير الأرض من الداخل تجاه الساحل.

وبالنسبة للجيش الإسلامي فإن صلاح الدين رسَّخ الاستعداد الدائم للقتال، ورفع الروح الإيمانية والجهادية في النفوس، كما نمى الكفاءة البدنية الجسدية، وأكد على الانضباط وكمال الطاعة (في غير معصية).[106]

معركة حطين:

جهَّز صلاح الدين جيشه للمعركة الفاصلة وكانوا 12 ألف مقاتل نظامي سوى المتطوعة، وجهَّز الفرنج أنفسهم وتصالحوا، وتجمعت ملوكهم وجيوشهم، وكوّنوا جيشاً من قرابة 63 ألف مقاتل.

اجتاز صلاح الدين نهر الأردن، وفتح طبرية بدون قلعتها، وبدأت المناوشات يوم الجمعة إلا أن المعركة احتدمت يوم السبت في 24 ربيع الثاني 583هـ – 4 تموز/ يوليو 1187م، وعانى الفرنج من الحر والعطش، وحصرهم المسلمون وأحرقوا الحشائش الجافة من حولهم ومن تحتهم "فاجتمع عليهم حرّ الشمس، وحرّ العطش، وحرّ النار، وحرّ السلاح، وحرّ رشق النبال"، ثم أمر السلطان بالتكبير وبالحملة الصادقة، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج فقتلوا منهم 30 ألفاً، وأسروا 30 ألفاً، وكان فيمن أسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس، "ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودَفع الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين".[107]

معركة حطين

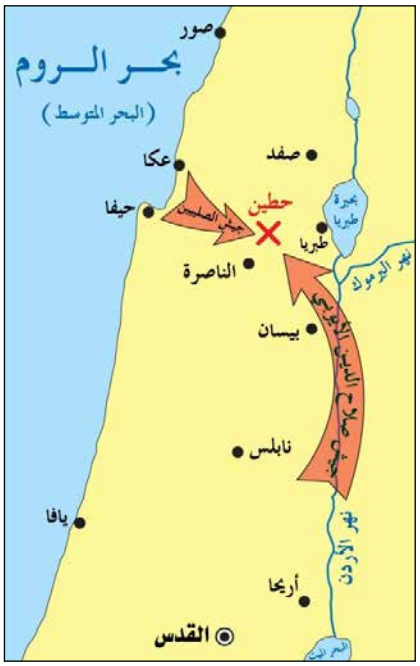

ووقع في الأسر الملك غي دو لوزينيان ملك بيت المقدس وأخوه، وأرناط حاكم الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده براً بيمينه لغدره وإيذائه المسلمين، وأسروا صاحب جبيل وابن همفرى Humphrey، ومقدم الداوية، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وقد أعدم المسلمون الداوية والاسبتارية لشدة نكايتهم في المسلمين.[108]

هذه هي وقعة حطين، وهي إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ فلسطين، بات المسلمون ليلتها يكثرون من التكبير والتهليل، وانتهت بسجود صلاح الدين شكراً لله مع سقوط خيمة ملك الفرنج وأسره.[109]

وبعد هذه المعركة فتحت الطريق أمام المسلمين لتحرير معظم أرجاء فلسطين، فخلال أيام قليلة تمّ فتح طبرية ثم عكا (10 تموز/ يوليو) ثم الناصرة وصفورية، ثم قيسارية وحيفا وأرسوف، ثم نابلس، ثم الفولة، ودبورية، وجنين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، وجميع ما يتبع طبرية وعكا، وتمّ فتح يافا. ثم اتجه المسلمون شمالاً ففتحوا حصن تبنين، ثم صيدا (29 تموز/ يوليو)، ثم بيروت (6 آب/ أغسطس)، وجبيل. ثم اتجهوا جنوباً لاستكمال فتوح فلسطين، ففتحوا الرملة، وبينه، وبيت لحم، والخليل، ثم عسقلان (4 أيلول/ سبتمبر)، وغزة والداروم، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية في غزة والنطرون، وبيت جبريل... وغيرها.[110] وقد تمَّ ذلك كله لصلاح الدين في شهرين تقريباً، وبعضها كان يحتاج إلى سنين من الحصار لاقتحامه، وكان جملة ما فتح "خمسين بلداً كباراً كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة".[111]

تحرير بيت المقدس:

تطلعت الأنظار إلى القدس فأعد صلاح الدين عدته، وبدأ حصارها في منتصف رجب 583هـ – 20 أيلول/ سبتمبر 1187م، وكان داخل القدس نحو 60 ألف مقاتل صليبي

كلهم يرى الموت أهون عليه من تسليمها. وخلال أيام حصارها جرت صدامات عديدة، وحاول المسلمون اقتحامها، واقتتلوا "أشد قتال رآه الناس، وكل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلا باعث سلطاني".[112] وطلب الفرنج الأمان مقابل تسليم المدينة فرفض صلاح الدين إلا أن يفعل بهم كما فعلوا بالمسلمين عندما احتلوها قبل نحو تسعين عاماً، ثم عادوا وطلبوا الأمان، وهددوا إن لم يعطوه أن يقتلوا أسرى المسلمين وهم ألوف، ثم يقومون بقتل نسائهم وذراريهم من النصارى، ويحرقون ويعطبون أموالهم، ويقتلون حيواناتهم، ويخربون الصخرة والأقصى، ثم يخرجون ليقاتلوا حتى النهاية قتال المستميت، وشاور صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على الإشارة بالأمان، فأمّنهم صلاح الدين: وتمّ للمسلمين فتح القدس في 27 رجب 583هـ – 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1187م، وظهر من تسامح ورحمة صلاح الدين الكثير مما اعترف به الصليبيون أنفسهم.[113]

وهكذا عادت بيت المقدس لتحكم براية الإسلام بعد 91 عاماً هجرياً (88 عاماً ميلادياً)، وأعيد للمسجد الأقصى بهاؤه ونضارته، وعاد صوت الأذان يصدح في جنباته، وتمّ إحضار المنبر الذي أعده نور الدين للمسجد الأقصى قبل فتحها بعشرين عاماً.[114]

ومن المهم الإشارة إلى أن صلاح الدين تابع فتح المدن والقلاع الصليبية الأخرى، ففتح سنة 584هـ جبلة، واللاذقية، وقلعة صهيون، وفتح حصن بكاس، والشغر، وسرمينية، وبرزية، ودرب ساك، وبغراس،[115] كما فتح الكرك وما يجاورها كالشوبك بعد طول حصار بالأمان "وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه، وأمنت قلوب كل من كان في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين". وفتح صلاح الدين صفد بالأمان بعد حصار، وخرج الفرنج إلى صور "وكفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية"،[116] كما فتح كوكب. وفي ربيع الأول 585هـ فتح صلاح الدين شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون.[117]

وهكذا عادت أرض فلسطين لتحكم تحت راية الإسلام من جديد. ولكن ربيع الانتصارات لم يدم طويلاً فانفتحت صفحة جديدة من الصراع والتحدي.

متابعة الجهاد ضدّ الصليبيين:

تجمَّع الصليبيون الذين سقطت مدنهم وقلاعهم في صور، وكان صلاح الدين قد تسامح وتساهل معهم في الذهاب إليها، وأخذ الصليبيون يرسلون الاستغاثات وتأتيهم الإمدادات حتى قويت شوكتهم، ثم إن صلاح الدين أطلق سراح الملك غي دو لوزينيان Guy de Lusignan سنة 584هـ على أن يعود لفرنسا، فذهب إلى صور وتولى قيادة الصليبيين من هناك بمساعدة أسطول من "بيزا Pisa" الإيطالية.... "وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عضّ بنانه ندماً وأسفاً؛ حيث لم ينفعه ذلك" على حدِّ تعبير ابن الأثير.[118]

هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا 585هـ/1189م، وانتظروا هناك حتى جاءتهم إمدادات الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا جريجوري الثامن لاستعادة بيت المقدس يقودها ثلاثة من ملوك أوروبا؛ إمبراطور ألمانيا فريدريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa الذي مات وهلك أكثر جيشه في الطريق،[119] وريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart ملك إنجلترا الذي جاء بحراً "فعظم به شرُّ الفرنج، واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة، ومكراً، وجلداً، وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها"،[120] وملك فرنسا فيليب أغسطس Philip Augustus. وحاصرت جميع الجيوش عكا (ربيع الثاني – جمادى الأولى 587هـ أي حزيران/ يونيو 1191م) وسقطت بأيدي الفرنج في 17 جمادى الأولى 587هـ – 12 تموز/ يوليو 1191م. وبهذا عاد الصليبيون ليكون لهم موطئ قدم جديد في فلسطين. وتداول المسلمون والفرنج الصراع، ونال كل طرف من الآخر، واستطاع الفرنج التمدد على الساحل إلى الجنوب فاحتلوا حيفا ويافا.[121]

ومن المهم الإشارة إلى أن الصراع كان دموياً مريراً، فقد أشار ابن كثير إلى أن صلاح الدين أقام على عكا صابراً مصابراً مرابطاً 37 شهراً، وأن جملة من قتل من الفرنج كان خمسين ألفاً.[122]

بلاد الشام في نهاية عهد صلاح الدين الأيوبي

وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي في 21 شعبان 588هـ – 1 أيلول/ سبتمبر 1192م، وهو عبارة عن هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، سيطر الفرنج بمقتضاها على الساحل من يافا إلى عكا، وسمح لهم بزيارة القدس، وحرية التجارة، وتنقل القوافل بين الطرفين.[123] على أنه من المهم الإشارة هنا إلى بعض النقاط المتعلقة بهذا الصلح:

1. لم يكن صلاح الدين يميل إلى عقد الصلح، وعندما أحضر أمراءه المستشارين كان رأيه عدم قبول الهدنة، وكتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين "... نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصرة مرجوة...، وقد ألفنا الجهاد، وألفنا به المراد، والفطام عن المألوف صعب...، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو....، رأيي أن

أخلّف رأي الهدنة ورائي، وأقدم تقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي...، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه".[124]

ولكن مستشاريه أجمعوا على قبول الصلح بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد والرعية، وقلة الأقوات، ولأن الفرنج إذا لم تحدث الهدنة أصروا على البقاء والقتال، أما إن حدثت فسيعود للبلاد سكانها وعمارها، وتستريح الأجناد وتقوى وتستعد للحرب، وكان رأيهم أن الفرنجة لا يفون بعهودهم، ولذلك نصحوه بعقد الهدنة حتى يتفرق الفرنج وينحلوا، وما زالوا به حتى رضي.[125]

2. إن هذا الصلح هدنة مؤقتة قصيرة الأجل، وليس معاهدة سلام دائمة، وقد عقد مثلها قبلها وبعدها العديد، وهي جائزة في الشرع حسب تقدير المصلحة التي يقررها إمام المسلمين، وقد استمرت من بعدها الصراعات والمعارك.
3. لم يتم في هذه الهدنة أي اعتراف للفرنج بأي حقٍّ لهم على أرض فلسطين، وإنما تقررت الهدنة بعدم القتال على ما انتزعوه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

وشتان ما بين هذه الهدنة التي عقد المسلمون منها العشرات، وبين معاهدة "السلام" مع الكيان الإسرائيلي التي تجري في عصرنا.

وعلى كل حال، فإن الأمر لم يطل بصلاح الدين فتوفي رحمه الله في 27 صفر 589هـ – 4 آذار/ مارس 1193م،[126] أي بعد ستة أشهر فقط من توقيع صلح الرملة.

ثامناً: الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:

دبّ النزاع والشقاق بين خلفاء صلاح الدين، ودخلوا بعد سنوات من وفاته في صراعات دموية أضعفتهم، وقوت شوكة المملكة الصليبية في عكا التي استمرت وتمددت في بعض الأحيان على حسابهم.

لقد كان حبّ الدنيا وحبّ السلطان، ولو على حساب المبادئ والمقدسات أحد المظاهر التي حكمت عدداً من سلاطين الدولة الأيوبية، فتحالف بعضهم مع الصليبيين ضدّ بعض، وعرضوا عليهم بيت المقدس أكثر من مرة مقابل أن ينتصر سلطان الشام على سلطان مصر أو العكس!! وقد سعد الصليبيون بهذا الدور الذي لعبوه، ولكنهم ظلّوا على طمعهم في الجميع، غير أن ربيع الصليبيين لم يدم طويلاً.

انتهت الحملة الصليبية الرابعة التي أرسلها الغرب 601هـ/1204م في القسطنطينية، ولم تصل إلى الشام أو مصر،[127] أما الحملة الخامسة 615–618هـ/1218–1221م فقد انطلقت من عكا نفسها بقيادة ملكها يوحنا برين (جان دو بريين) إلى دمياط بمصر. وعندما شعر السلطان الأيوبي الكامل محمد بن العادل بن أيوب بخطورة الوضع عرض على الفرنج الصلح مقابل تسليمهم القدس ومعظم فتوح صلاح الدين، فرفضوا وطالبوا بجنوب شرق الأردن أيضاً (الكرك والشوبك...)، وقام الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب صاحب دمشق بتدمير أسوار القدس وتخريبها حتى لا يستفيد منها الفرنج إذا احتلوها في 616هـ/1219م. لكن الأيوبيين حشدوا قواهم في النهاية، واستطاعوا هزيمة الصليبيين الذين عادوا خائبين إلى عكا بعد أن فاتتهم فرصة عظيمة.[128]

ثم إن الخلاف الناشب بين الكامل محمد والمعظم عيسى أدى إلى استنجاد الكامل محمد بفريدريك الثاني Frederick II إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي أصبح وصياً على عرش مملكة عكا الصليبية، ووعده بتسليمه القدس إن هو ساعده على أخيه المعظم عيسى.

وجاء فريدريك الثاني يقود الحملة الصليبية السادسة، ووصل إلى عكا في 625هـ/1228م، وعلى الرغم من أن المعظم عيسى توفي مما مكن أخويه الكامل محمد والأشرف موسى من اقتسام أملاكه مع إعطاء ابنه الناصر داود الكرك، والبلقاء، والأغوار، والسلط، والشوبك، ولم يعد الكامل بحاجة إلى فريدريك الثاني، إلا أن الكامل فرط في القدس "وفاء" بعهده لفريدريك!! الذي لم يكن لديه من القوة ما يكفي لإجبار المسلمين على التنازل عن القدس، بل إن فريدريك اضطر للبكاء واستعطاف الكامل في مراحل المفاوضات ليتسلم القدس!! ومما قاله للكامل: "... أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج.... فإن رأى السلطان أن ينعم عليَّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"!! واستجاب له الكامل، وعقد معه صلح يافا في 626هـ – 18 شباط/ فبراير 1229م لمدة عشرة أعوام، وبمقتضاه تقرر أن يأخذ الفرنجة بيت المقدس، وبيت لحم، وتبنين، وهونين، وصيدا مع شريط من الأرض من القدس يخترق اللد، وينتهي عند يافا، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل، على أن يكون حرم المسجد الأقصى بما حواه من الصخرة والمسجد القِبْلي بأيدي المسلمين.[129]

وهكذا استولى الفرنج على بيت المقدس الأمر الذي أثار غضب المسلمين "فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وأقيمت المآتم، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وحقد أهل دمشق عليه ومن معه، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار"،[130] وقال ابن كثير: "فعظم ذلك على المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجاف عظيم".[131]

واستمر الصراع بين أبناء البيت الأيوبي، غير أن الناصر داود صاحب الأردن انتهز فرصة انتهاء مدة صلح يافا، وتحصين الفرنج بيت المقدس بخلاف الشروط، فاستولى على القدس، وطرد منها الفرنج في 6 جمادى الأولى 637هـ – 7 كانون الأول/ ديسمبر 1239م، ولكن الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، سلَّمها لهم في 638هـ/1240م!! بعد أن طلب مساعدتهم له ضدّ صاحب مصر الصالح نجم الدين أيوب، هذا بالإضافة إلى تسليمهم عسقلان وقلعة الشقيف، ونهر الموجب وأعمالها، وقلعة صفد وأعمالها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهما، وجبل عامل وسائر بلاد الساحل... وقد أثار هذا التصرف سخط المسلمين الذين "أكثروا من التشنيع على الملك الصالح إسماعيل" وهكذا عادت القدس مرة أخرى للفرنج.

وعندما حشد الصالح إسماعيل قواته لينضم إلى حلفائه الفرنج عند غزة لقتال الصالح نجم الدين أيوب رفض جند الشام محالفة الفرنج ضدّ إخوانهم، فانحازوا إلى جند مصر، وهزموا الفرنج هزيمة كبيرة، ولكن الصالح أيوب صالحهم سنة 638هـ/1240م، واستقرت سيطرتهم على بيت المقدس، وما أعطاهم إياه الصالح إسماعيل.[132]

ومرة أخرى دخل أبناء البيت الأيوبي في الصراع، وظلت القدس والأرض المقدسة ورقة يلعبون بها في تهافتهم على السلطة والنفوذ. فقد عرض الصالح إسماعيل مرة أخرى على الفرنج في عكا التحالف مقابل أن يسيطروا على القدس سيطرة تامة بما في ذلك الصخرة والمسجد الأقصى، وانضم إليه في ذلك الناصر داود، وفي الوقت نفسه عرض الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على الصليبيين أنفسهم العرض نفسه مقابل التحالف معهم!!![133]

واختار الفرنج التحالف مع الصالح إسماعيل الذي شرع في غزو مصر بمساعدة حليفه الناصر داود والمنصور إبراهيم ملك حمص إلى جانب الفرنج. واستعان الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية الذين جاؤوا لمساعدته في قوة من عشرة آلاف

مقاتل في طريقها إليه بالاستيلاء على طبرية ونابلس، اقتحمت بيت المقدس في 17 تموز/ يوليو، واستعادت بيت المقدس بشكل كامل إلى حظيرة الإسلام في 642هـ – 23 آب/ أغسطس 1244م.[134] وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى أيدي المسلمين، وظلت تحتفظ بهويتها الإسلامية حتى دخلها الإنجليز في 1917/12/9م.

ثم إن الخوارزمية اتجهوا لمساعدة الصالح نجم الدين أيوب ضدّ الصالح إسماعيل وحلفائه، ووقعت معركة غزة الثانية (قرب غزة في موقع اسمه هربيا) بين هذه القوى في 12 جمادى الأولى 642هـ – 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1244م، وانتهت بهزيمة ساحقة للصالح إسماعيل والفرنج، وقُدِّر فيها عدد قتلى الفرنج بأكثر من 30 ألفاً عدا 800 أسير سيقوا إلى مصر، وكانت هذه المعركة هي أخطر ضربة تلقاها الصليبيون بعد معركة حطين، وتعدّ من المعارك الفاصلة في تاريخ فلسطين؛ إذ ضعف الصليبيون بعدها، ولم يتمكنوا من التوسع، وسعوا إلى الاحتفاظ بما لديهم.[135]

ثم قام الصالح أيوب بالسيطرة على القدس والخليل وبيت جبرين والأغوار ودمشق 642هـ/1245م، وعاقب الفرنج، فسيطر على قلعة طبرية، واقتحم عسقلان، وبذلك انحسرت حدود مملكة الفرنج إلى أبواب يافا سنة 644هـ/1247م.

ثم داهمت مصر الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا 646هـ/1249م، والتي انتهت بالفشل، وأسر لويس التاسع ثم تمّ إطلاق سراحه وذهابه إلى عكا،[136] ثم ما لبث الحكم الأيوبي لمصر أن انتهى بدخولها تحت حكم المماليك 647هـ/1250م، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الجهاد ضدّ المغول والصليبيين.[137]

وهكذا فإن بيت المقدس والأرض المقدسة في السنوات الخمسين التي تلت حكم صلاح الدين الأيوبي كانت عرضة لحالة من عدم الاستقرار خصوصاً في النصف الثاني منها، واستخدمت أكثر من مرة في مساومات عدد من حكام البيت الأيوبي مع الفرنج مقابل عقد تحالفات معينة، وافتقد هؤلاء مصداقيتهم الجهادية الإسلامية، حتى إن قتالهم للفرنج لم يكن يعبر بالضرورة عن التزامهم الإسلامي بقدر حرصهم على الحكم، والنفوذ، والمصالح الشخصية، ولذلك كان القتال مع الفرنج يعبر إلى حدٍّ كبير عن موازين القوى المادية بين هذه الأطراف، وهو ما جعل القدس وأجزاء من فلسطين تسقط أكثر من مرة بأيدي الفرنج دون مبررات مشروعة إسلامياً. على أن ما سبق لا

ينفي وجود الكثير من المتطوعة والمجاهدين الصادقين الذين كانوا وقود المعارك ضدّ الفرنج، والسبيل إلى تحرير الأقصى والأرض المباركة. ثم إن التعبئة الإيمانية الجهادية، والتصدي للحكام المتعاونين مع الفرنج التي قام بها علماء كبار سجنوا وأوذوا في سبيلها، أمثال العز بن عبد السلام وسبط بن الجوزي وغيرهما، كان لها دورها الكبير في حشد الجماهير وراء الصف الإسلامي، والإصرار على احتفاظ المسلمين ببيت المقدس والأرض المقدسة.

أهم المدن ومواقع المعارك في بلاد الشام

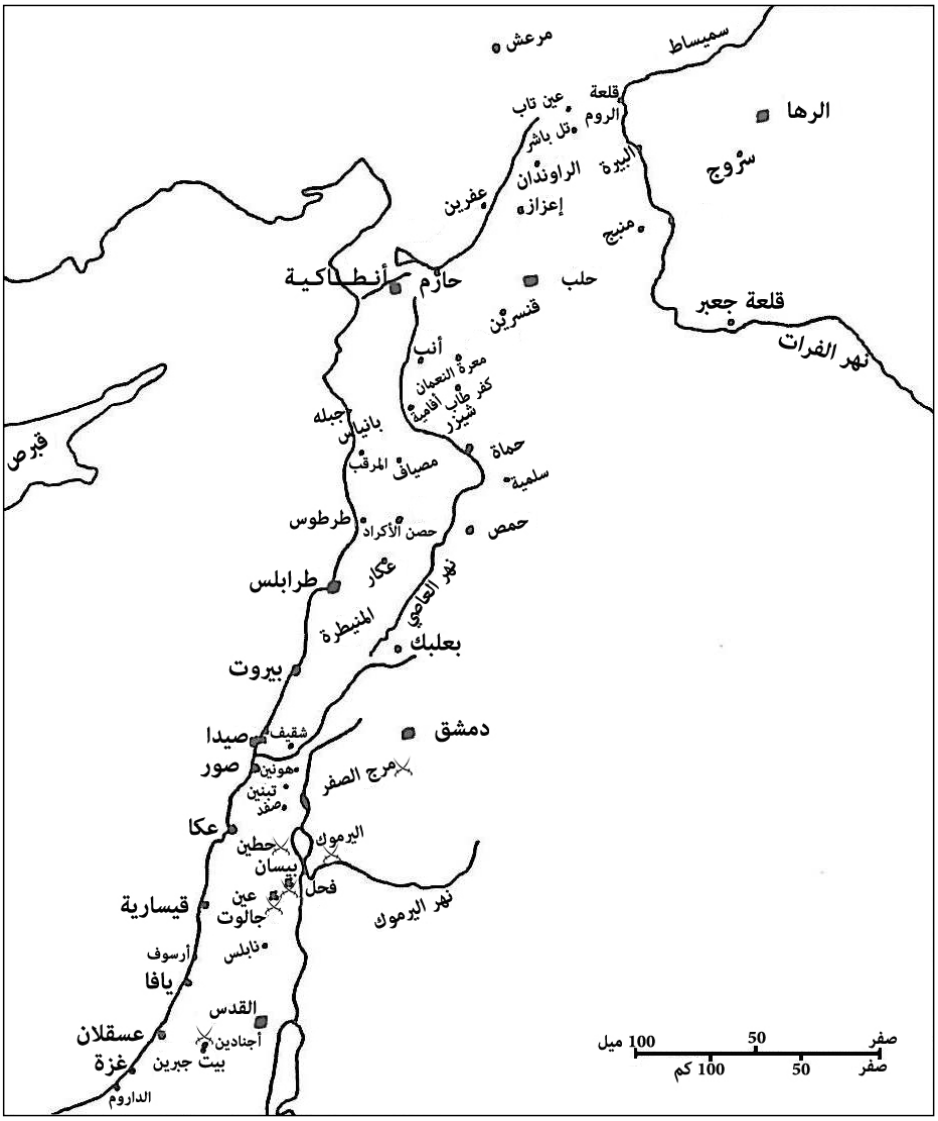

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

تاسعاً: المماليك ومواجهة التتار:

في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي (التتري) على بلاد المسلمين. وكان المغول قد توحدت قبائلهم تحت قيادة جنكيز خان Genghis Khan، وبدأوا حملة كبرى للتوسع، فسيطروا على منشوريا والصين وكوريا، واستطاعوا تحطيم جيش الدولة الخوارزمية المسلمة 1221م، الذي كان سداً منيعاً أمام توسعهم تجاه العالم الإسلامي، والذي كان قد حقق عليهم عدداً من الانتصارات المهمة.

وقد توفي جنكيز خان سنة 624هـ/1227م، ولكن المغول واصلوا زحفهم فاقتحموا آسيا الوسطى، وروسيا، وسيطروا على موسكو، كما سيطروا على أوكرانيا، وهاجموا بولندا، وهزموا الجيوش الألمانية، واجتاحوا المجر بعد أن سحقوا جيشها، وتوغلوا في أوروبا، كما أخذوا يتوغلون في العالم الإسلامي، فاستكملوا سيطرتهم على مناطق التركستان وأفغانستان والهند وفارس... .[138]

وكان المغول يدمرون الممالك التي أمامهم تدميراً دون شفقة أو رحمة وبشراسة رهيبة أرعبت العالم من قوتهم وسطوتهم، فصاروا ينتصرون لا بكفاءتهم وقوتهم فحسب، وإنما بالحرب النفسية والرعب الذي بثوه في نفوس الناس.... حتى انتشر المثل القائل "من قال لك إن التتار قد هزموا فلا تصدقه"!! وقد استثمر المغول، إلى أقصى حدّ، حرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة الحركة، كما استثمروا حرب الأعصاب، فنشروا الرعب والذعر من بطشهم في كل مكان.

وكانت بلاد المسلمين تعاني من التفكك والضعف مما سهل على المغول الزحف إلى بلادهم، والقضاء بسهولة على ممالكهم. وبلغ من ضعف حكام المسلمين أن أحدهم، وكان يحكم إحدى المدن، أرسل صورته المرسومة على حذاء هدية لهولاكو قائد المغول، حتى "يتشرف" هذا الحاكم بوضع هولاكو قدمه على صورته عندما يلبس الحذاء؟![139]

ثم اجتاح المغول العراق، وحاصروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تعاني من ضعف شديد كان من أسبابه تآمر الوزير ابن العلقمي مع المغول لإسقاط الخلافة وتسريحه معظم جيش الخلافة الذي أصبح 10 آلاف بعد أن كان أكثر من 100 ألف.

وقد سقطت بغداد في 656هـ – 10 شباط/ فبراير 1258م، وقام المغول بمذبحة هائلة استمرت أربعين يوماً، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ 800 ألف، وقيل مليونان، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وقيل إنه وضع في كيس وقتل رفساً.[140]

وقام المغول باجتياح بلاد الجزيرة، واستولوا على حران، والرُّها، وديار بكر، ثم جاوزوا الفرات، ونزلوا حلب في 658هـ – كانون الثاني/ يناير 1260م، وأظهر حكام بني أيوب في الشام تخاذلاً كبيراً، فأعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب خضوعه للمغول، ولكنهم دخلوا حلب، وارتكبوا الفظائع، حتى جرت دماء المسلمين في الأزقة. وبادر المنصور بن المظفر صاحب حماة بالفرار إلى مصر بحريمه وأبنائه تاركاً حماة وأهلها يلقون مصيرهم، ثم فرّ الناصر يوسف من دمشق إلى غزة بنية الهرب إلى مصر، "وترك دمشق خالية وفيها عامتها..."، وتبدد البيت الأيوبي في الشام بسرعة.

وصل المغول إلى دمشق فسيطروا عليها بعد إعطاء الأمان لأهلها أول آذار/ مارس 1260م ثم غدروا بهم، وخلال فصل الربيع احتلوا نابلس والكرك، وتقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر.[141] وهكذا تقاسم النفوذ في فلسطين مملكة عكا الصليبية والمغول التتار، وعادت فلسطين لتئن من جديد تحت سنابك خيل الكفار.

الصليبيون والتتار:

فرحت أوروبا بالهجوم التتري على بلاد الإسلام، وعملت على التنسيق معهم بغية ضرب "العدو المشترك"، كما هدفوا إلى نشر المسيحية بين التتار أنفسهم، وقد نجحوا في بداية الأمر جزئياً في ذلك؛ إذ اشتهر القائد التتري الذي اجتاح بلاد الإسلام هولاكو بميله للمسيحيين النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم، وكانت زوجته مسيحية أيضاً، وقد لعبت هذه الزوجة دوراً خطيراً تفخر فيه الكنيسة في تجنيب أوروبا أهوال الغزو التتري، وتوجيهه لبلاد المسلمين، بل إن قائد معركة عين جالوت التتري كتبغا Kitbuqa كان مسيحياً، حتى إن أحد الأساقفة المسيحيين وصف حملة التتار بأنها "حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نسطورية مسيحية"، وإن آمال الغرب قد انعقدت على هولاكو وقائده كتبغا ليحقق "القضاء على المسلمين". وقد بادر هاتون الأول Hutton I ملك أرمينية وبوهيموند السادس Bohemond VI أمير طرابلس وأمراء الفرنج في صور وعكا وقبرص إلى عقد حلف مع المغول التتار يقوم على أساس القضاء على المسلمين في آسيا، وتسليم الفرنج بيت المقدس.[142]

وفي تلك الفترة تولى السلطة في مصر، التي أخذ المماليك يحكمونها، السلطان المظفر قطز محمود بن ممدود في 17 ذو القعدة 657هـ – كانون الأول/ ديسمبر 1259م، وقد عُرِفَ قطز بتقواه، وصلاحه، وارتباطه العميق بالإسلام، وكان تلميذاً لأعظم العلماء في ذلك العصر العز بن عبد السلام. وعلى حدّ تعبير ابن كثير فقد كان قطز شجاعاً بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه، ويدعون له كثيراً.[143]

ولم يكد يمرّ عليه في الحكم سوى بضعة أشهر حتى واجه مشكلة الاجتياح التتري، وتلقى رسالة تهديد عنيفة من هولاكو، قبل مغادرته سورية، تطلب منه الاستسلام جاء فيها "اتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا... أي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص... الحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع!...".[144]

ولكن قطز، القائد المسلم الذي لا يخشى إلا الله، والذي يعلم أن النصر بيد الله، وأنه متى استكمل العدة، وبذل الأسباب، وأحسن الصلة بالله، والاستعانة به حقق له النصر، قرر إعلان الجهاد، ومواجهة الزحف المغولي، وبعد أن قرأ الكتاب قبض على هؤلاء الرسل، وأمر بإعدامهم توسيطاً (بأن يضرب الشخص في وسطه، فيقسم نصفين)، وعلقت رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة (باب زويلة) وكان إعدامهم إعلاناً لا تراجع فيه عن العزم على القتال، وتحدياً يفيض بمشاعر القوة والعزة في مواجهة الزحف التتري.[145]

وقرر قطز أن يبادر هو بالهجوم والزحف على قوات التتار رفعاً للروح المعنوية للمسلمين، وتأكيداً على روح الجهاد الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وحفظاً لأرض الإسلام في مصر، وتحريراً لأرض الإسلام في بلاد الشام، ومن ضمنها أرض فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، وتخويفاً للتتار بأنه نوع جديد من الرجال لم يواجهوه من قبل، ولأن أنجح وسائل الدفاع الهجوم.

وفي شعبان 658هـ – 26 تموز/ يوليو 1260م اجتاز الجيش المسلم بقيادة قطز الحدود، وحرر غزة؛ حيث أقام بها يوماً واحداً، ثم اتجه شمالاً باتجاه قوات التتار؛ حيث التقت القوتان الإسلامية والتترية عند "عين جالوت" شمال شرقي فلسطين.

معركة عين جالوت:

ونشبت إحدى أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ هناك وهي معركة عين جالوت، يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ – 3 أيلول/ سبتمبر 1260م، وفي هذه المعركة توفرت للتتار عناصر النصر "علمياً ومنطقياً" إذ تفوق التتار على الجيش الإسلامي في عناصر:

- الكفاءة والخبرة الواسعة، نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضوها "قيادة وجنوداً".
- المعنويات العالية جداً لأنهم لم يهزموا من قبل.

- التفوق الكبير في العدة والعتاد والأعداد.
- الكفاءة العالية لسلاح الفرسان الذي تميز بكثرته وسرعة حركته وقدرته على تطبيق (حرب الصاعقة) التي كانت إحدى السمات البارزة للتتار.
- التفوق الإداري فله قواعد قريبة وطرق من مواقع الجيش المسلم.
- مواضع التتار في المعركة كانت أفضل من مواقع الجيش المسلم.

وعلى الرغم من التفوق التتري الساحق، إلا أن النصر الساحق كان للمسلمين.

التقدم المغولي ومعركة عين جالوت

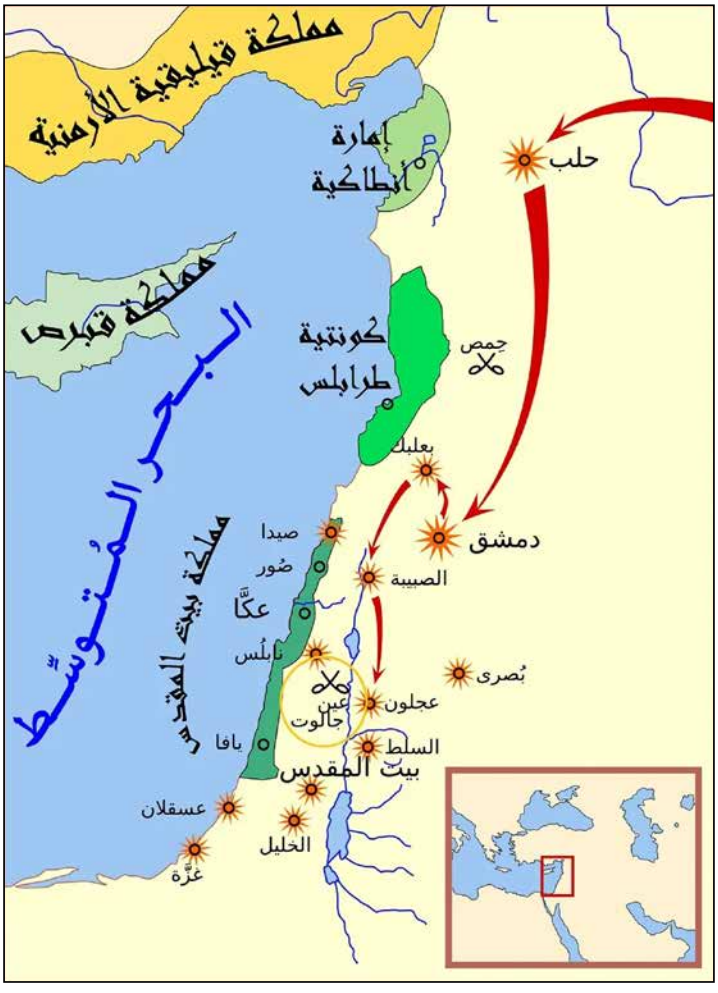

المصدر: عين جالوت.. قصة النصر الإسلامي الذي دمر أسطورة المغول والتتار، موقع الجزيرة الوثائقية، 2022/4/26، انظر: https://doc.aljazeera.net

لقد تميز جيش قطز بأنه "جيش إسلامي" قام لنصرة الإسلام، والدفاع عن أراضيه المقدسة، وشارك في هذا الجيش شيوخ مصر وعلماؤها وصالحوها، وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجيش، فخرج من مصر تائباً منيباً طاهراً يبغي نصر دين الله، والتمكين له في الأرض، كما تميز الجيش الإسلامي بقيادة مؤمنة تتحلى "بإرادة القتال" بأقوى مظاهرها، وهي من أهم عوامل النصر في أي معركة.[146]

طلب قطز من الجيش الانتظار لما بعد صلاة الجمعة "لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم"...، وهكذا بدأ القتال.

وفي أثناء المعركة قتلت زوجة قطز "جلنار" وهي تجاهد فأقبل عليها قطز وهي في الرمق الأخير وهو يقول: واحبيبتاه، فقالت له: لا تقل واحبيبتاه، ولكن قل وا إسلاماه، ثم صعدت روحها إلى الله بعد أن ذكرته بأن أمر الإسلام والجهاد في سبيل الله أهم من الحب والعلاقات الشخصية...، وقام قطز منتفضاً وهو يردد وا إسلاماه... وا إسلاماه والجيش يرددها حتى تمّ النصر... .

كما حدث في أثناء المعركة أن قُتل فرس قطز، فترجل أحد الأمراء ليعطيه فرسه، فرفض حتى لا يحرمه من الجهاد، وحتى يأتيه المعنيون بالخيل بفرس جديد، فقيل له: لمَ لَمْ تركب الفرس، ولو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك؟ فقال: "أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه". وبعد النصر ترجل قطز عن فرسه، ومرغ وجهه بالتراب، وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر.

وبدأ المسلمون فوراً في مطاردة المغول، ودخل قطز دمشق بعد خمسة أيام من عين جالوت، وامتدت المطاردة إلى حلب، فلما شعر المغول باقتراب المسلمين تركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين... وقاسوا من البلاء الكثير، وخلال شهر واحد كان المسلمون بقيادة المماليك قد استعادوا بلاد الشام من المغول والتتار.[147]

وتعدّ هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ؛ إذ إنها أوقفت الزحف التتري الذي لم يكن يقف أمامه شيء، وكانت بداية لسلسلة من الهزائم المتوالية أعادت المغول إلى قواعدهم، وحررت بلاد الإسلام منهم. ثم إن من استقر من المغول في بلاد الإسلام تحول إلى الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، فكان ذلك نصراً جديداً للمسلمين.

عاشراً: المماليك والقضاء على الصليبيين:

على الرغم من انحسار المد المغولي التتري عن فلسطين، وانتصار المسلمين في عين جالوت، إلا أن مملكة عكا الصليبية ظلّت تحتفظ بسيطرتها على المنطقة الساحلية الممتدة من يافا إلى عكا. وقد تولى سلاطين المماليك مهمة تحرير باقي أرض الإسراء، وبلاد الشام، حتى جلا آخر الصليبيين عنها بعد أكثر من ثلاثين عاماً من معركة عين جالوت.

وكان الظاهر بيبرس قد تولى خلافة السلطان قطز الذي لم يدم حكمه أكثر من عام، ونُفسح المجال هنا لنقل المختصر الجيد الذي كتبته الموسوعة الفلسطينية حول دور بيبرس ومن تلاه من سلاطين:

> وقد قام الظاهر بيبرس بدور كبير في محاربة الفرنج في بلاد الشام وتطهيرها منهم، فكان في حركة دائبة مستمرة يقوم بالغارات على ممتلكاتهم. ولكنه كان يلجأ أحياناً على الرغم من ذلك إلى توقيع المعاهدات معهم إذا أحسَّ بحاجة إلى ذلك. وقد جرت العادة أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات.
>
> وبعد أن فرغ من القضاء على المشكلات الداخلية في دولته توجه إلى حرب الفرنج. ففي 662هـ/1263م خرج إلى فلسطين، ولما وصلت قواته إلى عكا خرج الفرنج إليه يطلبون تجديد الهدنة، ويتعهدون بإطلاق سراح أسرى المسلمين، والمحافظة على العهود والمواثيق. ولكن بيبرس لم يكترث لمطالبهم، وآثر مهاجمة مواقعهم المختلفة، ولا سيّما عكا، ليعرف أماكن القوة والضعف فيهم إلى أن يحين الوقت لاستنقاذ البلدان والمواقع التي كانوا يحتلونها. ولم تكن قوة الفرنجة بقادرة على اعتراض سبيله.
>
> خرج الظاهر بيبرس إلى فلسطين ثانية 664هـ/1265م فاستولى على قيسارية المحصنة، وهدم أسوارها، وهاجم قسم من جيشه عكا، وضرب حيفا، ثم سقطت أرسوف في يده في السنة نفسها.
>
> وفي السنة التالية خرج إلى فلسطين مرة أخرى، وحاصر صفد وفتحها، وهدم أسوارها، ثم عاد إلى فلسطين في 666هـ/1267م فأرسل إليه الفرنجة يطلبون الهدنة. وكان يتبع سياسة مهادنة بعضهم دون الآخر حتى لا تتجمع قواهم في وجهه. وقد مكنته هذه السياسة من تحرير أنطاكية سنة 667هـ/ 1268م. ويعد

استيلاؤه عليها أكبر نصر حققه المسلمون على الفرنجة في الشام منذ تحرير صلاح الدين بيت المقدس سنة 583هـ/1187م، وقد وافق بيبرس بعد فتح أنطاكية على عقد هدنة مع عكا مدتها عشر سنوات على أن تكون أعمال عكا مناصفة بين الطرفين، ويستولي هو على المرتفعات المحيطة بصيدا.

تابع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون مسيرة تحرير بلاد الشام من الفرنج بعد الظاهر بيبرس. ففي عهده حدث تحالف ثلاثي ضمّ التتار والصليبيين في الشام، وسنقر الأشقر نائب دمشق الثائر، ولكن تحالفهم أخفق، وبدأ قلاوون يشدّد الخناق على الفرنج، فاحتل حصن المرقب 684هـ/1285م، واستولى على اللاذقية 686هـ/1287م، وعلى طرابلس 688هـ/1289م. وقد استفاد قلاوون من حالة الفرنج غير المستقرة في عكا خاصة، وبلاد الشام عامة بسبب الصراعات والمنازعات على السلطة، فقوي مركزه وتمت له تصفية الوجود الفرنجي في الشرق العربي، ولم يبقَ في هذه الفترة بيد الفرنج على الساحل الشامي سوى عكا وصور وصيدا وعتليت.

وجد قلاوون أن الوقت قد حان لتصفية الوجود الصليبي في فلسطين، فانتهز حادثة مهاجمة الفرنج في عكا تجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم، فأعلن الجهاد، وطلب القوات من جميع أنحاء مصر والشام، وأقام خارج القاهرة ينتظر وصول الإمدادات، ولكنه مرض فجأة وتوفي في ذي القعدة 689هـ – 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1290م، فخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل. وقد حاول الفرنج في عكا الاستفادة من الوضع الجديد ومن التغيير في القيادة المملوكية، فعرضوا على الأشرف خليل عقد هدنة يضع هو شروطها، ولكنه رفض وأكمل الاستعداد، وسار إلى عكا وحاصرها بمساعدة القوات الشامية، وتمكّن من تحريرها في 17 جمادى الأولى 690هـ – 18 أيار/ مايو 1291م بعد أن هرب ملكها هنري الثاني Henry II إلى قبرص، وبعد فتح عكا استولى الأشرف خليل على صيدا، وصور، وحيفا، وعتليت، وأمر بهدم تحصيناتها جميعاً. وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي في أيدي المماليك، وانتهى وجود الفرنجة في فلسطين والشام بعد قرنين من الزمان (492–690هـ أي 1099–1291م).[148]

وبذلك عادت فلسطين كاملة إلى حظيرة الحكم الإسلامي الذي استمر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين.

خلاصة:

لعل الدارس لتاريخ الحروب الصليبية والجهود التي بذلت لتحرير الأرض المباركة يخرج بالنقاط البارزة التالية:

- إن الراية التي رفعت لتحرير فلسطين هي الراية الإسلامية، ولم تكن راية قومية أو علمانية أو إقليمية.
- إن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الذي عادت عن طريقه فلسطين إلى الحكم الإسلامي.
- إن أبرز رموز الجهاد والقادة الذين حُررت الأرض المباركة على أيديهم (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، قطز، بيبرس، قلاوون وابنه...) تبنوا الإسلام فكراً، ومنهجاً، ووسيلة للتحشيد والتعبئة ضدّ العدو الغاصب. وكانوا بشكل عام على التزام تام بالإسلام وأحكامه، وعلى سلامة العقيدة، وحسن الصلة بالله.
- إن القادة، والأمراء، والجنود، والمتطوعة، والعلماء الذين شاركوا في الجهاد والتحرير كانوا من جنسيات ومناطق شتى (عرب، أكراد، ترك... إلخ) وكان قاسمهم المشترك أمراً واحداً هو الإسلام وإيمانهم بحقهم المقدس في الأرض المباركة.
- إن أمر استعادة كامل فلسطين قد اقتضى نحو 200 عامٍ من الجهاد دون أن يتنازل المسلمون عن حقهم فيها، فكانت معركة تداولتها الأجيال حتى قطفت الثمرة النهائية للانتصار.
- وبالتالي فإن المحتل الغاصب لم يكن عدواً سهلاً، ولا ينبغي أن نتوقع من أي عدو أن يكون سهلاً (كاليهود الصهاينة في عصرنا)، كما لا ينبغي أن نفقد الأمل مهما طال الزمن، ومهما كان العدو شرساً عنيداً.
- إن هناك ارتباطاً جوهرياً بين انتصارات المسلمين، وبين مدى التزامهم بدين الله وشرعة تحكيمه في حياتهم، كما أن هناك ارتباطاً جوهرياً بين هزائم المسلمين وبين تنازعهم وتشتتهم وبعدهم عن منهج الإسلام.
- إن الفكرة الإسلامية هي الوسيلة المثلى لتحشيد وتعبئة الطاقات لتحرير أي أرض إسلامية.

هوامش الفصل الثالث

[1] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 126.

[2] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 160.

[3] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: 171–173.

[4] **القرآن الكريم**، سورة النساء: 141.

[5] **القرآن الكريم**، سورة محمد: 7.

[6] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 45–46.

[7] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 60.

[8] **القرآن الكريم**، سورة النور: 55.

[9] **القرآن الكريم**، سورة النور: 63.

[10] انظر: فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**، ط 4 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988)، ص 51–54.

[11] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 162.

[12] فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 68.

[13] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 190–220.

[14] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[15] أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، ط 4 (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 23–24؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 78؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ط 4 (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 1986)، ج 1، ص 104–107.

[16] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 108–113؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 25–26.

[17] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 181؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 34–35.

[18] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 187.

[19] فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 108–112.

[20] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 189؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 112–113.

[21] أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 36–37؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 116.

[22] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 229–230؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 444.

[23] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 1، ص 201–210، و231–232؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 204؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 117–124.

[24] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 42.

[25] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 46.

[26] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 258–259.

[27] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[28] المرجع نفسه، ج 8، ص 228–229.

[29] المرجع نفسه، ج 8، ص 272.

[30] مثلاً: مقتل سيرجال صاحب أنطاكية مع ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة في معركة مع إيلغازي صاحب حلب سنة 512هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 289)، وأسر جوسلين صاحب الرها ومعه ابن خالته كليام وجماعة من الفرسان المشهورين سنة 515هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 304).

[31] المرجع نفسه، ج 8، ص 222.

[32] المرجع نفسه، ج 8، ص 226.

[33] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 446.

[34] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 268، و302، و320.

[35] انظر: المرجع نفسه، ج 8، ص 212، و218، و228–229.

[36] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج 1، ق 1 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956)، ص 75؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 309، و323.

[37] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 331.

[38] المرجع نفسه، ج 8، ص 329–368، وج 9، ص 5؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 78، و84–85.

[39] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 8، ص 367.

[40] المرجع نفسه، ج 9، ص 8–9؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 94–96.

[41] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 107–109.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 13.

[43] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 220؛ وانظر أيضاً: أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 109–114؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 179–204.

[44] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة** (دمشق–بيروت: دار القلم، 1980)، ص 49–50. يعتبر هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن نور الدين محمود، حيث أعطى المؤلف من خلاله صورة متكاملة عن شخصيته وسياساته الإدارية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية والثقافية.

[45] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125.

[46] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 53.

[47] المرجع نفسه، ص 45–47.

[48] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 583.
(صدر القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب أبي شامة سنة 1962 في مصر عن وزارة الثقافة).

[49] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 278؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 24.

[50] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125؛ وانظر: أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 584؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 278.

[51] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125.

[52] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 42.

[53] المرجع نفسه، ص 12، و25.

[54] المرجع نفسه، ص 27–32.

[55] انظر: المرجع نفسه، ص 75–89.

[56] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 544.

[57] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 223؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 17.

[58] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 36؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 125؛ وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 79.

[59] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 93–107.

[60] المرجع نفسه، ص 86.

[61] المرجع نفسه، ص 87.

[62] المرجع نفسه، ص 35–36.

[63] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 281.

[64] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 144.

[65] حول اهتمامه بالعلم والعلماء انظر: المرجع نفسه، ص 129–165.

[66] المرجع نفسه، ص 20–24، و111–118.

[67] انظر: المرجع نفسه، ص 93–126.

[68] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 86–87.

[69] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، ص 32–35.

[70] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 45–46؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 1، ص 236.

[71] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 84–85؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 329–338.

[72] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 95–96؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 363–367.

[73] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 99–103؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 389–406؛ وحول ضمّ نور الدين لمصر انظر: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 229–244.

[74] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 111؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 492–500.

[75] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 109–110.

[76] المرجع نفسه، ج 9، ص 123؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 551–554.

[77] انظر بالتفصيل حول صراع نور الدين مع الصليبيين: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ص 207–226.

[78] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 82–83.

[79] المرجع نفسه، ج 9، ص 83.

[80] أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 342–343.

[81] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 86–88.

[82] المرجع نفسه، ج 9، ص 124؛ وأبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج 1، ق 2، ص 577–582.

[83] حول صفات صلاح الدين وأخلاقه، انظر: بهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (مصر: شركة طبع الكتب العربية، 1317هـ)، ص 4–28؛ ومحمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 282، و307–314؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 13–25.

[84] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 285.

[85] المرجع نفسه، ج 12، ص 285–286؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 127.

[86] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 129–133؛ وانظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 583–586.

[87] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 137.

[88] المرجع نفسه، ج 9، ص 153.

[89] المرجع نفسه، ج 9، ص 156–159.

[90] المرجع نفسه، ج 9، ص 161–162.

[91] المرجع نفسه، ج 9، ص 162.

[92] المرجع نفسه، ج 9، ص 163.

[93] المرجع نفسه، ج 9، ص 169–170.

[94] المرجع نفسه، ج 9، ص 171.

[95] انظر حول جهاد صلاح الدين للصليبيين في تلك الفترة: فايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 47–113.

[96] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 129–130.

[97] المرجع نفسه، ص 141–143؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 596.

[98] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 142–145.

[99] المرجع نفسه، ج 9، ص 147.

[100] المرجع نفسه، ج 9، ص 155–156.

[101] المرجع نفسه، ج 9، ص 160.

[102] المرجع نفسه، ج 9، ص 164–166.

[103] المرجع نفسه، ج 9، ص 174.

[104] انظر: بسام العسلي، **صلاح الدين الأيوبي** (بيروت: دار النفائس، 1983)، ص 99–106.

[105] المرجع نفسه، ص 107–109.

[106] المرجع نفسه، ص 112–115.

[107] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 320–321؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178.

[108] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 321؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178.

[109] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 178؛ وحول معركة حطين، انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 76–83؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 632–638؛ وبهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ص 60–64.

[110] انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 88–114؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 172–182؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 637–643.

[111] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 322.

[112] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 182.

[113] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ص 183؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 323–324؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 644–650.

[114] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 185.

[115] المرجع نفسه، ج 9، ص 190–195.

[116] المرجع نفسه، ج 9، ص 196.

[117] المرجع نفسه، ج 9، ص 196–200.

[118] المرجع نفسه، ج 9، ص 197.

[119] المرجع نفسه، ج 9، ص 207.

[120] المرجع نفسه، ج 9، ص 213.

[121] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ص 214–215.

[122] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 345.

[123] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 605؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 12، ص 350؛ وانظر بالتفصيل حول الحملة الصليبية الثالثة: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 659–709؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 86–93؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 177–244.

[124] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 603.

[125] المرجع نفسه، ص 604–605.

[126] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 3.

[127] انظر: أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 279–291؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 279–291.

[128] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 760–777؛ وأرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ص 105–110؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 249، وج 3، ص 512.

[129] نظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 123–124؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 791–804؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 618.

[130] انظر: السيد الباز العريني، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1) الأيوبيون** (دون مكان: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 125–127؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 334؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 618–619؛ ومجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 1، ص 406–407.

[131] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 124.

[132] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 817–821؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250، وج 3، ص 447. ذكر الحنبلي أن القدس استمرت بأيدي المسلمين حتى 641 هـ، انظر: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 2، ص 5–6.

[133] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250.

[134] انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 250، وج 3، ص 447؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 825–826؛ وفايد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، ج 2، ص 354–355.

[135] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 164–165؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250، وج 3، ص 304، و447، و512؛ والسيد العريني، **الأيوبيون**، ص 141–142؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 826–827.

[136] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 250؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 831–849.

[137] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 850–853.

[138] انظر: السيد الباز العريني، **المماليك** (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص 40–43.

[139] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، نقله للعربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة — دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، ص 301.

[140] حول استيلاء المغول على بغداد، انظر: المرجع نفسه، المجلد الثاني، ج 1، ص 281–295؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 886–887.

[141] حول اجتياح المغول للشام، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، ص 305–309؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 886–887.

[142] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 868–872، و881.

[143] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 225.

[144] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899؛ ومحمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 333–334.

[145] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899.

[146] انظر: محمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص 345–346.

[147] حول معركة عين جالوت، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج 1، ص 310–316؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 899–901؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام** (القاهرة: دار النهضة العربية، 1990)، ص 195–199؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13، ص 220–221.

[148] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 447–448. ولمزيد من التفصيل انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج 2، ص 905–936؛ وسعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص 210–234.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine From the Time of the Prophets to the Twenty First Century

هذا الكتاب

فلسطين... الأرض المباركة، ساحة الصراع الدائم بين الحق والباطل، منذ أن رفع إبراهيم عليه السلام راية الحق والتوحيد فيها وأجيال الأنبياء والصالحين والشهداء تتوارثها وتتداولها، تحافظ على هويتها وأصالتها. كلما أَنَّت الأرض المقدسة من وطأة الغاصبين، كلما جاء من أهل الحق من يجلو عنها الظلام، لتشرق من جديد بنور التوحيد.

هذا الكتاب... يستعرض التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء إلى عصرنا (حتى سنة 2022)، يدرس الفتح الإسلامي لفلسطين، وتجربة تحريرها من أيدي الصليبيين والتتار، ويستقرئ واقعها الحديث والمعاصر منذ أواخر الدولة العثمانية؛ ويسلّط الضوء على دور التيار الإسلامي في الانتفاضات والثورات والعمل المقاوم، ضد الاحتلال البريطاني والكيان الصهيوني، بما في ذلك أدوار الحاج أمين الحسيني، وحركة القسام "الجهادية" والإخوان المسلمين وحماس والجهاد الإسلامي...

إنه دعوة لاحتفاظ الأمة بأصالتها والإصرار على حقها، وتأكيد على أن الكيان الصهيوني الغاصب إنما هو مرحلة من تاريخ الصراع وحلقة من سلسلته، وسيزول كما زال من سبقه من أهل الباطل، عندما تثوب الأمة المسلمة إلى رشدها وتستجمع عوامل قوتها ووحدتها ونهضتها.

هذا الكتاب... يستجيب لرغبة الكثير من القراء في التعرف على مجمل تاريخ فلسطين وقضيتها من وجهة نظر إسلامية، وهو كتاب أكاديمي موثّق من الناحية العلمية، حافل بالمعلومات، ولكنه جاء سهلاً بعيداً عن الجفاف والجمود، كما سعى لأن يستلهم مواطن العبرة والعظة، دونما حاجة لخطابة عاطفية أو إنشاء.

ISBN 978-614-494-036-5

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net